

تهذيب إسلامي لقصص :

كليلة ودمنة

مع دراسة حول مؤلفها

بقلم

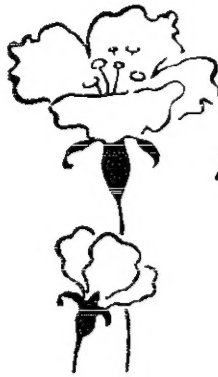
سليمان بن صالح الخراشي

دار القلم

تَهْنِئَاتُ بِلِإِسْلَامِهَا

لِقَصَصِ

أَكْبَرِ الْمَلَائِكَةِ



حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٤١٩هـ

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم للنشر

الرياض ١١٤٤٢ ص.ب/ ٦٣٧٣ ت/ ٤٧٧٥٣١١ فاكس/ ٤٧٧٤٤٣٢

تَهْذِيبُ سِلْسِلَةِ الْأَمْثَلِ

لِقَصَصِ

الْحِكْمَةِ وَوَسَائِلِهَا

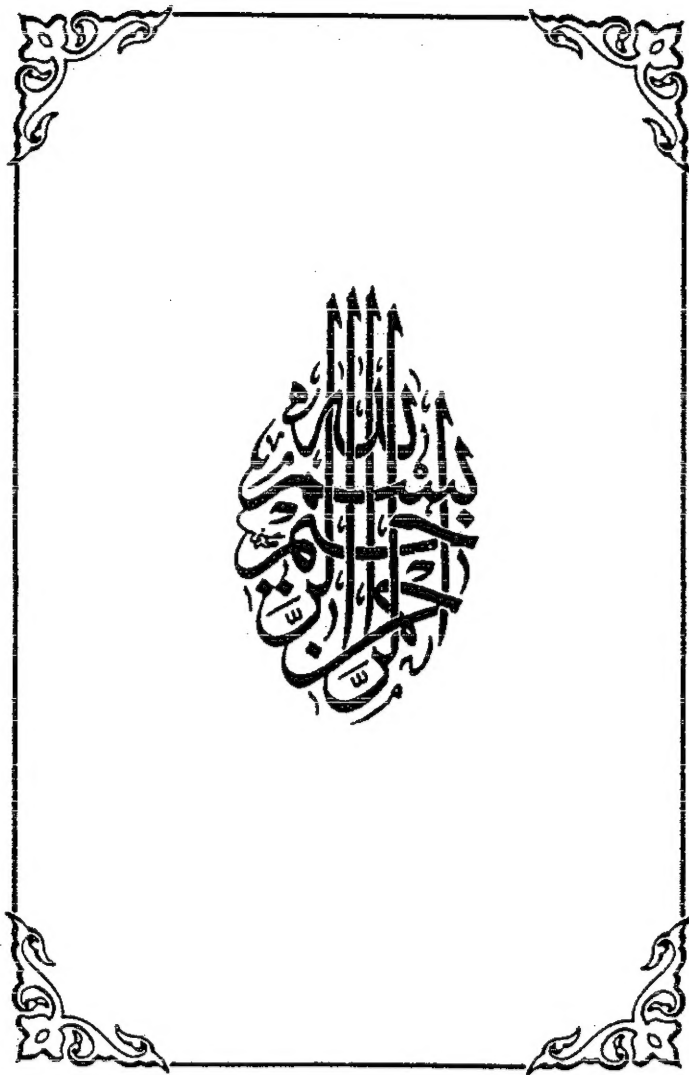
بِقَلَمِ

سَيِّدِ الْإِيمَانِ بْنِ صَالِحِ الْخَرَّاشِيِّ

دار القاسم للنشر

الرياض ١١٤٤٢ هـ . ص . ب ٦٣٧٣

ت : ٤٧٧٥٣١١ فاكس : ٤٧٧٤٤٣٢



المقدمة

(كليلة ودمنه) .. كتاب مشهور بين الخاصة والعامة، صيغت حكاياته على ألسنة الحيوانات بقصد التثقيف بأسلوب لطيف، والتفكه وإظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسًا للقلوب، يصلح للصغير والكبير.

وهي طريقة قديمة بدأها الهنود والفرس ثم انتقلت إلينا عبر الترجمة، التي كان منها هذا الكتاب المشتهر بين الناس منذ أزمان.

ولشهرته فقد قام بعض الأدباء بنظمه، منهم (أبان بن عبد الحميد اللاحقي) أحد شعراء الدولة العباسية، المتوفى سنة ٢٠٠هـ.

وقد افتتحه بقوله:

هَذَا كِتَابُ أَدَبٍ وَمَحْنَةٍ

وَهُوَ الَّذِي يَدْعَى كَلِيلَةَ وَدْمَنَةَ

فِيهِ احْتِيَالاتٌ وَفِيهِ رَشْدٌ

وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعْتَهُ الْهِنْدُ

وممن نظمه أيضًا (سهل بن نوبخت) وقدمه إلى يحيى بن خالد البرمكي.

ومنهم ابن الهبارية: الشريف أبو يعلى محمد بن حمزة ومما قال في نظمه:

والمالُ مقصود لدى اللئام
كالكلب إذ يقنع بالعظام
والفاضل الكامل مثل الأسد
يسمو على القدر البعيد الأمد
والكلب يرضى نفسه بكسره
والفيل لا يرجو الغلام كسره
وقد نظم الكتاب آخرون غيرهم^(١).

ولبيان شهرة هذا الكتاب - أيضًا - فقد [توالت طبعاته^(٢) في مصر
منذ عهد محمد علي باشا إلى اليوم واتخذته وزارة المعارف كتابًا
مدرسيًا فلا تجد في مصر عالمًا أو متعلمًا إلا اطلع عليه وقرأه كله أو
بعضه]^(٣).

وقد حذت كثير من الدول العربية حذو مصر فأدخلت هذا الكتاب
ضمن مكتباتها المدرسية - ومنها بلادنا - لينتفع به الطلاب في مختلف
المستويات. وبرغم حلاوة كلمات الكتاب وجمال حكاياته واشتماله
على الأفكار النافعة والأخلاق الشريفة.. فقد ضم بداخله أشياء كثيرة

(١) انظر: «دائرة المعارف الإسلامية» (٣٨/١)، و«ابن المقفع» لعبد اللطيف حمزة
(٢١٤ - ٢١٧).

(٢) منها طبعة المنفلوطي، وطبعة محمد حسن المرصفي، وطبعة لويس شيخو،
وطبعة المحامي فوزي عطوي، وطبعة صابر يوسف، وطبعة عبد اللطيف حمزة.
وطبعات أخرى كثيرة.

(٣) كلية ودمنة (٩).

لا توافق منهجنا الإسلامي كما سيأتي.

لهذا السبب أولاً.. ولشهرة الكتاب بين الناس منذ قديم الزمان
ثانياً، اخترت أن أقوم بتهذيب إسلامي لمحتوياته تزيل ما علق بها من
آثار غير إسلامية أو أفكار وعبارات تضر ولا تنفع.. لكي يصل هذا
الأثر القديم إلى أبنائنا نقياً غير متكرر.

وقد قسمت هذا التهذيب إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: دراسة حول الكتاب ومؤلفه.

القسم الثاني: سرد القصص بعد تهذيبها.

* * * *

القسم الأول:

الدراسة

ابن المقفع:

وُلد ابن المقفع بقرية من قرى فارس اسمها (جور) وموضعها فيروز آباد الحالية، ويقول ابن النديم: إن اسمه بالفارسية (روزبه) ومعناه (المبارك) وكان يكنى قبل إسلامه بأبي عمرو. وكان اسم أبيه (داذويه) فلما أسلم تسمى بعبدالله وتكنى بأبي محمد^(١).

قال الذهبي: [أحد البلغاء والفصحاء ورأس الكتاب، وأولي الإنشاء من نظراء عبدالحميد الكاتب. وكان من مجوس فارس فأسلم على يد الأمير عيسى عم السفاح وكتب له واختص به]^(٢).

أول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، ولي كتابة الديوان للمنصور العباسي وترجم له كتب أرسطوطاليس الثلاثة في المنطق وكتاب المدخل إلى علم المنطق المعروف بإيساغوجي^(٣).

قال الأصمعي: صنف المصنفات الحسان منها الدرة اليتيمة التي لم يصنف في غيرها مثلاً.

قلت: ونقل ابن الجوزي في المنتظم (٥٢/٨) كلمات استحسناها من هذا الكتاب (اليتيمة) فمن ذلك قوله (أي ابن المقفع): [يا طالب العلم والأدب، اعرف الأصول والفصول فإن من الناس من يطلب

(١) ابن المقفع (٣٧) عبداللطيف حمزة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٥، دار الفكر العربي.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠٨/٦).

(٣) الأعلام للزركلي (١٤٠/٤) دار العلم للملايين.

الفصول مع إضاعة الأصول، فلا تكون دركهم دركاً، ومن أحرز الأصول اكتفى بها من الفصول، فإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل، وأفضل الأمر أن تعقد على الإيمان وتجتنب الكبائر، وتؤدي الفريضة، فإن قدرت أن تجاوز إلى الفقه والعبادة فهو أفضل، وأصل الأمر في إصلاح البدن أن لا يُحمل عليه من المأكَل والمشارب والباءة إلا خفّاً ثم إن قدرت أن تعلم عن جميع منافع الجسد ومضاره فهو أفضل].

قال الأصمعي: قيل لابن المقفع: من أدبك؟ فقال: نفسي، إذا رأيت من غيري حسناً أتيتُهُ وإن رأيت قبيحاً أتيتُهُ.

واجتمع ابن المقفع بالخليل بن أحمد صاحب العروض، فلما افترقا قيل للخليل: كيف رأيتُهُ؟ فقال: علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: عقله أكثر من علمه.

والمقفع - بضم الميم وفتح القاف وتشديد الفاء وفتحها وبعدها عين مهملة - وقال ابن مكّي في كتاب (تثقيف اللسان): ويقولون: ابن المقفّع والصواب ابن المقفّع - بكسر الفاء - لأن أباه كان يعمل القفّاع ويبيعها. قال ابن خلكان [والقول الأول هو المشهور بين العلماء وهو فتح الفاء]^(١).

قال ابن خلكان: [كان ابن المقفع يعبث بسفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة أمير البصرة وينال من أمه ولا يسميه إلا بابن

(١) وفيات الأعيان (٢/ ١٥١ - ١٥٢)، دار صادر.

المختلطة.. وذكر الهيثم بن عدي أن ابن المقفع كان يستخف بسفيان كثيرًا، وكان أنف سفيان كبيرًا، فكان إذا دخل عليه قال: السلام عليكما! يعني نفسه وأنفه وقال له يومًا: ما تقول في شخص مات وخلّف زوجًا وزوجة؟ يسخر به على رؤوس الناس، وقال سفيان يومًا: ما ندمت على سكوت قط، فقال له ابن المقفع: الخرس زين لك فكيف تندم عليه؟!.. وكثر ذلك منه فقدم سليمان وعيسى ابنا علي البصرة - وهما عما المنصور - ليكتبا أمانًا لأخيهما عبدالله بن علي من المنصور، وكان عبدالله المذكور قد خرج على ابن أخيه المنصور وطلب الخلافة لنفسه، فأرسل إليه المنصور جيشًا مقدمه أبومسلم الخراساني، فانتصر أبومسلم عليه. وهرب عبدالله بن علي إلى أخويه سليمان وعيسى، واستتر عندهما خوفًا على نفسه من المنصور، فتوسطا له عند المنصور ليرضى عنه، ولا يؤاخذه بما جرى منه، فقبل شفاعتهما، واتفقوا على أن يُكتب له أمانٌ من المنصور، فلما أتيا البصرة قالوا لعبدالله ابن المقفع: اكتبه أنت وبالح في التأكيد كي لا يقتله المنصور، فكتب ابن المقفع الأمان وشدد فيه حتى قال في جملة فصوله: «ومتى غدرَ أميرُ المؤمنين بعمه عبدالله بن علي، ففساؤه طوالق، ودوابه حُبُس، وعبيدة أحرار، والمسلمون في حل من بيعته».

وكان ابن المقفع يتنوق في الشروط، فلما وقف عليه المنصور عظم ذلك عليه، وقال: من كتب هذا؟ فقالوا له: رجل يقال له عبدالله ابن المقفع يكتب لأعمامه، فكتب إلى سفيان متولي البصرة المقدم ذكره يأمره بقتله، وكان سفيان شديد الحنق عليه للسبب الذي تقدم ذكره،

فاستأذن ابن المقفع يومًا على سفيان، فأخر إذنه حتى خرج من كان عنده، ثم أذن له فدخل، فعدل به إلى حجرة فقتل فيها.

وقال المدائني: لما دخل ابن المقفع على سفيان، قال له: أتذكر ما كنت تقول في أمي؟ فقال: أنشدك الله أيها الأمير في نفسي، فقال: أمي مغتلمة إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد، وأمر بتنور فسُجِّر، ثم أمر بابن المقفع فقطعت أطرافه عضوًا عضوًا، وهو يلقيها في التنور، وهو ينظر، حتى أتى على جميع جسده، ثم أطبق عليه التنور، وقال: ليس عليّ في المثلة بك حرج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس.

وسأل سليمان وعيسى عنه ف قيل: إنه دخل دار سفيان سليمًا ولم يخرج منها، فخاصمناه إلى المنصور، وأحضراه إليه مقيدًا، وحضر الشهود الذين شاهدوه وقد دخل داره ولم يخرج، فأقاموا الشهادة عند المنصور، فقال لهم المنصور: أنا أنظر في هذا الأمر، ثم قال لهم: رأيتم إن قتل سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت - وأشار إلى باب خلفه - وخاطبكم ما تروني صانعًا بكم؟ أأقتلكم بسفيان؟! فرجعوا كلهم عن الشهادة، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكره، وعلموا أن قتله كان برضا المنصور. ويقال: إنه عاش ستًا وثلاثين سنة^(١).

قلت: وكانت ذلك سنة (١٤٥هـ) وقيل: (١٤٢هـ) وقيل غيرها كما في وفيات الأعيان (١٥٣/٢) والسير (٢٠٩/٦).

(١) (١٥٥/٢ - ١٥٦) بتصرف.

زندقة ابن المقفع:

اشتهر ابن المقفع بين أصحاب العلم والأدب بالزندقة والاستخفاف بالدين، وبعضهم يزيد في ذلك ويؤكد أنه بقي على مجوسيته ودينه القديم برغم إظهاره الإسلام وتغييره اسمه المجوسي.

فابن الجوزي يذكر في المنتظم أنه [يتهم في دينه] (٥٦/٨).

والذهبي يقول: [كان ابن المقفع يتهم بالزندقة].

وينقل عن المهدي قوله فيه: [ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع] (٢٠٩/٦).

ويقول ابن خلكان: [وكان ابن المقفع مع فضله يتهم بالزندقة، فحكى الجاحظ أن ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون في دينهم، قال بعضهم: فكيف نسي الجاحظ نفسه؟]^(١) (١٥١/٢).

قلت: قد أطل الأستاذ عبداللطيف حمزة في رسالته (ابن المقفع) الحديث عن زندقته وعقد لها فصلاً كاملاً عنوانه (زندقة ابن المقفع) (٧٢ - ٩٥) تحدث فيه عن ديانات الفرس القديمة و[أن ابن المقفع

(١) الجاحظ من أساطين المعتزلة، وفي هذا بيان لبدعته، فلا يعد من الزنادقة إن قصد بهم المعنى المصطلح عليه للزندقة، وهم من يبطن الكيد للإسلام، فهو (أي الجاحظ) ناصر لبدعته ويصدق فيه وفي كتبه ما قاله ابن قتيبة: [تجده يقصد في كتبه المضاحك والعبث، يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ ويستهزيء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم...]. (تأويل مختلف الحديث ٤٢).

كان زرادشتي المذهب كأمثاله من الموالي] (٨٠) وينقل عن الصفدي قوله: [كانت آراء ابن المقفع الإلحادية منقولة أو معروضة في كتب الزنادقة الممنوعة] (٨١).

[وحفظ الناس قول ابن المقفع حين مر بيت من بيوت النار بعد أن أسلم فتمثل قول الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتغزل

حذر العدا وبه الفؤاد موكل

إنني لأمنحك الصدود وإنني

قسمًا إليك مع الصدود لأميل] (٨١)

ويدلل الدكتور عبداللطيف على زندقته بأن باب (برزويه الطيب) في كتاب (كليلة ودمنة) هو من وضعه هو لا كما يدعي أنه ترجمه، وفي هذا الباب ما فيه من [شكوك دينية كثيرة حاول إخفاءها بما كان يكتبه حول هذه الشكوك نفسها من عبارات إسلامية يرضي بها الرأي العام] (٨٢).

[ولقد قام الأستاذ (ميخائيل أنجلو جويدي) عام (١٩٢٧) بنشر كتاب عنوانه (الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله آمين)، للقاسم إبراهيم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم] (٨٣).

وكتابه هذا وضعه للرد على ابن المقفع في معارضته للقرآن الكريم! بكتاب وضعه في ذلك.

وأما الأستاذ أحمد أمين فقد شك في كتابه ضحى

الإسلام^(١) [في نسبة الأصل لابن المقفع والرد للقاسم: واستدل على شكه في نسبة الرد إلى القاسم بشيئين: أحدهما: أن ابن النديم عدد كتب القاسم ولم يكن منها كتاب بهذا الاسم^(٢)، والآخر: أن كتاب القاسم سجع كله والسجع ليس من طريقة القرن الثالث الهجري).

قلت: وقد تعقبه في ذلك عبداللطيف حمزة بقوله - بعد أن أورد شيئاً من عبارات كتاب ابن المقفع -: [من تلك العبارات التي جمعتها من الكتاب رأيت أنه لم يكن مسجوعاً، ورأيت أن السجع الذي ورد فيه جاء عفواً، بل رأيت هذه العبارات مقسمة تقسيماً منطقياً كالذي نعرفه من أسلوب ابن المقفع، ورأيت في هذا الأسلوب ميلاً إلى التهكم كالذي نعلمه من أخلاق الرجل] (٨٧).

أما عدم ذكر ابن النديم والمسعودي وغيرهما لهذا الكتاب في مؤلفات ابن المقفع فيقال: [إن هؤلاء جميعاً لا يحاولون الاستقصاء فيما يضيفونه من الكتب لابن المقفع أو غيره أيضاً] (٨٨).

ثم نقل الأستاذ عبداللطيف تلخيصاً مهماً لمقالة لأحد المستشرقين (اسمه غبرائيلي) (٨٩ - ٩٣) جاء فيها [أن ابن المقفع كان يؤمن بالمانوية، وأنه ربما وجد فيها يومئذ ما يهدىء شيئاً من ثورة نفسه التي عذبتها الشكوك، وهي النفس التي خلفت لنا (باب برزويه) شاهداً عليها، وهو باب إن لم يكن ابن المقفع ألفه كله، فمن المحقق أنه

(١) (٢/٢٢٤).

(٢) الفهرست (١٩٣).

تناوله بالتغيير والإضافة. ومن يدري لعله رأى أن المانوية هي التي استطاعت في نظره أن تحل مسألة الشر وعلاقته بالخالق، وهي المسألة التي حار فيها رجال الأديان الموحدة^(١)، لا الأديان الثنوية، وأن المانوية أيضًا هي التي استطاعت في نظره أن تحل مسألة أخرى من مسائل الدين وهي (القول بحرية الإرادة) وغير ذلك.

وافترض الأستاذ غبرائيلي في مقاله هذا فرضين للتوفيق بين إيمان ابن المقفع بالمانوية من جهة، وبين شبكه في بقية الأديان - ومنها الإسلام والمزدكية - من جهة ثانية: «أولها» نقلي بسيط وهو قول البيروني عن ابن المقفع إنه أضاف إلى كتاب كليلة ودمنة باب برزويه «قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المانية». «وثانيهما» وهو الأرجح - أن ابن المقفع تطور من الشك العقلي الذي عبر عنه في باب برزويه - إلى ما يسمى في اليونانية «باللوغوس الثنوي» الذي فسر به مسألة الشر وعلاقته بالخالق، وشرح به المسألة الأخرى وهي «حرية الإرادة»، ثم قال: ويجب رفض الاحتمال الثالث العكسي، وأعني به احتمال تطور ابن المقفع من المانوية إلى الشك - وذلك لأن دين آبائه لم يكن المانوية وإنما كان المزدكية.

ثم ختم غبرائيلي هذا المقال القيم بقوله: وفي ذلك رد على بعض

(١) الذي عليه أهل السنة في هذه المسألة أن الله خالق كل شيء، وأن الشر لا يكون في فعله تعالى، بل هو في مفعولاته، ولذلك لا يضاف الشر إليه تعالى، كما قال ﷺ في حديث الشفاعة: «والخير في يديك، والشر ليس إليك».

ما قلناه في مصرع ابن المقفع: «ومن المؤكد أن ابن المقفع لم يمّت لأنه زنديق ولكنه مات وهو زنديق»!].

ثم علّق الأستاذ حمزة على ذلك بقوله: [فخلاصة القول في أمر ابن المقفع من حيث زندقته: هي أنه مرت عليه تلك الفترة العصبية من فترات حياته - وهي الفترة التي كان عقله فيها موزعاً بين كل هذه الأديان - يحن منها إلى دينه القديم، مسوّقاً إلى ذلك بقلبه وعاطفته، ومقتنعاً في ذلك أيضاً بمبلغ الحضارة التي جلبها ذلك الدين القديم إلى قومه من الفرس القدماء. ثم ينتقل عقله إلى الإسلام فيحاول أن يناقش أصوله وقواعده، ويطيل النظر في آيات القرآن ومواعظه، ويفسر ما جاء به من القصص تفسيراً يوضح لنا هذه الحيرة العظيمة التي كان يضطرب فيها أيما اضطراب. ثم ينتهي من كل ذلك إلى المانوية، فيخيل إليه أن فيها نجاته من كل هذا البلاء.

ومن يدري لعل الرجل بعد ذلك فكر في أن يشغل نفسه بشيء غير الدين، فشغل نفسه فعلاً بالإصلاح الاجتماعي.

ومهما يكن من شيء فالمدة التي قضاها ابن المقفع في الإسلام - صح إسلامه أم كذب - كانت مدة قصيرة - ومن يدري لو طال به العمر أي شرٍ كان يصيب الإسلام من شكوكه؟ وأي شرٍ كان يصيب المسلمين من اتصاله بالملاحدة وغيرهم من أفراد الطوائف الدينية الكثيرة كالمعتزلة والدهرية وغيرهما؟ (وبعد) فإذا كان ابن المقفع زنديقاً بهذا المعنى فكيف يتفق ذلك ونظرته إلى المثل الأعلى الذي قلنا إننا سنفهم فلسفته الدينية والاجتماعية على أساسه؟

الحق أن نظرة الرجل إلى هذا المثل الأعلى هي وحدها التي كانت تسبب له كل هذه الشكوك، فكأنه كان يستعرض الأديان كلها في ذهنه ويسأل نفسه دائماً! أين الحق منها جميعاً؟ وأي هذه الأديان أقرب إلى الصواب منها جميعاً؟ وهكذا.

وما الذي كنت تنتظره من عقل متحضر كعقل صاحبنا مشحون بكل هذه الملل والآراء؟ أليس من شأنه أن يفاضل على هذا النحو؟ أليس من شأنه أن يخضع كل شيء لسلطان العقل؟

بلى - وذلك ما فعله ابن المقفع فيما يختص بالدين، وسرى أيضاً أن ذلك ما يفعله الرجل فيما يختص بالاجتماع^(١).

قلت: وأما الأستاذ محمد كرد علي فقد برأ ابن المقفع من كل تلك الشكوك والالتهامات ودافع بحماسة عن إيمانه! راداً بذلك جميع الأخبار المتواترة التي استخرجها العلماء من سيرته ومؤلفاته والتي تحكي زندقته وبغضه وإعراضه عن القرآن.

فهو يقول مثلاً: [لقد قرأنا كلام ابن المقفع وتدبرناه فما رأينا له كلمة واحدة تشعر بزندقته. وكيف تثبت الزندقة إذا لم تقم عليها بينات ظاهرة من أقوال وأفعال؟]^(٢) ويقول: [صحة الإيمان وحب الإسلام صفتان ماثلتان في ابن المقفع مهما تقوّل عليه المتقولون!!]

قلت: أما إن الأستاذ قد خرج بهذا الرأي بعد تدبره لكلام ابن

(١) (٩٤ - ٩٥).

(٢) أمراء البيان (١٠٥)، دار الأمانة، الطبعة الثالثة، (١٣٨٨هـ).

المقفع - كما يزعم - فإني في شك من ذلك! لأن هذا الكتاب (كلية ودمنة) شاهد موثق على تلك الشكوك التي انتابت العلماء والباحثين من المسلمين وغيرهم في صحة إسلام الرجل.. كما سيأتي بعد قليل.

* * *

كليلة ودمنة:

يُصنف كتاب (كليلة ودمنة) ضمن (الفابولا) أو القصة على لسان الحيوان [والقصص الحيواني حكايات رمزية قصيرة - ربما طالت - تتضمن الأقوال والأفعال المعزوة إلى الحيوانات، والقصد منها تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك وإذاعة الآداب الراقية بأسلوب مؤثر شائق. فهي حكاية ذات مغزى خلقي وتعليمي تحكى على لسان الحيوان أو النبات، وتتضمن مضموناً إنسانياً شاملاً وقد يضيق هذا المضمون فيقتصر على مجتمع محدد من المجتمعات]^(١).

وهذه القصص غالباً ما ترتبط [بالأساطير التي تعتمد على تفسير الظواهر الطبيعية وتعليلها، والتي تعرض بعض تقاليد المجتمعات في طورها الأول القديم]^(٢).

وهذه نظرة كاشفة في نقاط لكتاب (كليلة ودمنة) تبصر القاريء بحقيقة نشأته وموضوعه وأبوابه.. وسأعتمد على النسخة التي حققها وقدم لها الدكتور عبدالوهاب عزام، حيث وصفت بأنها [أكمل النسخ وأصحها وأقدمها].

١ - اختلف الباحثون في واضح هذا الكتاب (كليلة ودمنة).. هل

(١) كليلة ودمنة في الأدب العربي، ليلي حسن سعد الدين، مكتبة الرسالة، عمان (ص ١٤٩).

(٢) المرجع السابق.

هو منقول من التراث الهندي كما توحى بذلك أبوابه ومحتواه؟ . . أم أن ابن المقفع قد ابتدأه من تلقاء نفسه وأنشأه بهذه الصورة بغرض التفنن والأدب ولأغراض أخرى تأتي؟ . . أم أنه ترجمه عن لغته الأولى (الفارسية) وزاد فيه وتصرف؟

فقد قال ابن خلكان: [ويقال إن ابن المقفع هو الذي وضع كتاب (كليلة ودمنة) وقيل إنه لم يضعه وإنما كان باللغة الفارسية فعرّبه ونقله إلى العربية وإن الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه]^(١).

وقال ابن النديم في الفهرست (٦٠٦): [وكان ممن يحمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم: سهل بن هارون بن راهيون وعبدالله بن المقفع وعلي بن داود. . . فأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف في أمره: فقليل عملته الهند وخبر ذلك في صدر الكتاب، وقيل: عملته ملوك الإشكانية ونحلته الهند، وقيل: عملته الفرس ونحلته الهند، وقال قوم: إن الذي عمله بزر جمهر الحكيم].

وأما ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء (٤١٣) فيذهب إلى أن ابن المقفع ترجمه. والمسعودي في مروج الذهب (٧٠/١) يقول عن دبشليم ملك الهند: [وهو الواضع لكتاب كليلة ودمنة الذي ينسب لابن المقفع].

وينقل محمد كرد علي عن الجاحظ قوله: [ونحن لا نستطيع أن

(١) (١٥١/٦).

نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة؛ إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويضعوا مثل تلك السير، ثم يعقب مبدئاً رأيه قائلاً: [اختلفوا في كون ابن المقفع نقل حكاية كليلة ودمنة عن الفارسية والأرجح أنه كتبه مباشرة وقد أقر في المقدمة أنه كتب بعض فصوله ونقل الباقي عن غيره]^(١).

قلت: ومثله (أي كردعلي) صنع الدكتور عبداللطيف حمزة فذهب هذا المذهب كما سبق النقل عنه. وانظر كتابه (ص ٨٢ و ١٩٩ وما بعدها).

وأما الدكتورة ليلي سعد الدين في رسالتها (كليلة ودمنة في الأدب العربي) فتلخص لنا هذا الاختلاف بقولها: [أستطيع أن أجمع تلك الاختلافات في رأيين اثنين يمكن أن يقدمنا لنا صورة لافتة من صور الجدل أو النقاش الذي تسبب فيه ابن المقفع:

الرأي الأول: أن الكتاب ترجم من أصله الهندي إلى الفهلوية ومن هذه نقل إلى العربية.

والرأي الثاني: أن أغلب أصول الكتاب كانت حكايات متداولة في

(١) أمراء البيان (٩٠).

قلت: وفي رسالة الجاحظ لأحمد بن عبدالوهاب المسماة بـ (الترييع والتدوير) قوله: [ومن صاحب كليلة ودمنة؟]. (ص ٨٤)، طبعة بلات (١٩٥٥ م).

أرض الهند - أقصد البصرة - فصاغها ابن المقفع مستنداً إلى حصيل واسع من فابولات الجاهليين والنبط والإغريق والهنود واليهود وغيرهم. والرأيان لهما ما يسندهما] وحجج الرأي الأول هي أن:

[١ - الكتاب هندي لأنه يخلو من الآثار المجوسية وعبادة النار وأخبار كيومرت أو جمشيد أو رستم أو الضحاك أو دارا أو غيرهم من ملوك الفرس وأبطالهم كما أنه يخلو من صنوف الحيوان الرمزية التي وجدت في كتب زرادشت، بينما تجد فيه بعض آثار الهند من دراويش ورهبان وألفاظ سنسكريتية، مثال ذلك ما نقرأه في قصة (الأسود وملك الضفادع) و(الناسك وابن عرس) وما نراه في أمر اللبؤة الممتنعة عن أكل اللحم في باب (الأسود واللبؤة والشعهر) فهذه أصلها بوذي، وإن كان مثلها قد وجد في المانوية فيما بعد]. ثم تبدي الدكتور رأياً قائلة:

[ويبدو أنني انسقت وراء الرأي الثاني الذي زعمت له الوجاهة، وخلاصته أن كتاب (كلية ودمنة) من وضع ابن المقفع نفسه وليس مترجماً عن البهلوية عن الهندية على الرغم من وجود البنش تنترا. وقد انفرد بهذا الرأي الدكتور أحمد كمال زكي، وقرر أن ما توصل إليه الباحثون من فصول البنش تنترا لا يقطع بصحة ترجمة الكتاب برغم ما بين الأصل والصورة كما يقولون من تشابه وإذا كان ثمة أسماء هندية في النسخة العربية مما يعد نقضاً بقضية التأليف فإن الدكتور زكي يرد على ذلك بأن الكتاب ابن البصرة وقد ألم بكل ما دار فيها من ثقافات أمم وتراثهم والبصرة بعدُ عمرت بالهنود وعرفت بأرض

الهند^(١).

ولكن بم يُفسر آوجود الأعلام الهندية كدبشليم وبيدبا وبرزويه وبزرجمهر ممن وردت أسماؤهم في الكتاب؟ قد تكون هذه الشخصيات خيالية تشبه شخصيات أيسوب وهوميروس عند اليونان أو كيومرت وغيره عند الفرس، أو عنترة وأبي زيد الهلالي عند العامة بمصر، وتأليف كتاب كهذا لا يحتاج بالضرورة إلى وجود ملك ظالم، وإلى فيلسوف حكيم يعظه ويحذره. بل يكفي أن يكون الخيال الشعبي قد خلق كل ذلك مؤلفاً حولها الحكايات بعيداً عن الاعتماد على حقيقة التاريخ الثابتة [١٦٣ - ١٦٨].

قلت: وأما الدكتور عبدالوهاب عزام فيعارض هذا الرأي ويؤكد هندية الكتاب بقوله: [وقد شك بعض الناس في أمر الكتاب، وزددوا رواية ابن خلكان. وهذا كلام لا وزن له، فلم يبق ريب في أن الكتاب هندي الأصل، وقد عُثر على معظم أبوابه في الكتابين: «بنج تترا» و«هتوبادشا» من الكتب الهندية].

وقد عَرَفَ هذا من قبلُ العلامةُ المحقق أبو الريحان البيروني، فقال في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة»: «ولهم (أي الهند) فنون من العلم آخر كثيرة، وكتب لا تكاد تحصى؛ ولكن لم أحط بها علماً. وبودي أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب بنج تترا. وهو المعروف عندنا بكتاب كلبلة ودمنة، فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية

(١) الحياة الأدبية في البصرة (٤٥٦ - ٤٥٧).

والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبدالله بن المقفع في زيادته باب برزويه فيه قاصداً تشكيك ضَعْفَى العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية. وإذا كان متهمًا فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل.

ليس لدينا إذن ما يدعو إلى الشك في الرواية المتداولة أن هذا الكتاب ترجم من الهندية إلى الفهلوية، ثم ترجم إلى العربية في القرن الثاني من الهجرة^(١).

قلت: ومن اطلع على الكتاب (كليلة ودمنة) وتدبر مقدمته وفصوله وحكاياته فإنه يميل بمصاحبة الاطمئنان إلى رأي الدكتور عزام بأنه منقول من التراث الهندي ثم الفارسي ثم العربي لا كما يذهب إليه بعض الباحثين من أنه تراث فارسي أو أن ابن المقفع قد وضعه اعتماداً على حصيلته الثقافية الواسعة لتراث الأقدمين. . ويرجح هذا القول أمور:

١ - أن هذا هو الظاهر من وضع الكتاب، ومن ادعى غيره فعليه إيراد الدليل الجازم. فابن المقفع يقول في مقدمته: [هذا كتاب كليلة ودمنة وهو مما وضعت علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي التمسوا بها أبلغ ما يجدون من القول] (٣٧) ويقول: [وإنّا لما رأينا أهل فارس قد فسروا هذا الكتاب وأخرجوه من الهندية إلى الفارسية ألحقنا باباً بالعربية ليكون له أساً ليستبين فيه أمر هذا الكتاب لمن أراد قراءته

(١) كليلة ودمنة (٢٢).

وفهمه والاقتباس منه] (٤٥) ثم يذكر بعثة برزويه إلى بلاد الهند لإحضار هذا الكتاب إلى كسرى وما صادف في هذه الرحلة.

وأما فصول الكتاب الأخرى فتبدأ بالحوار التقليدي المشهور بين ملك الهند (دبشليم) والفيلسوف (بيدبا).

فالكتاب ظاهر من مقدمته وأسلوب عرضه أنه كما قال ابن المقفع أصل هندي قديم ترجمه الفرس رغبة في الاطلاع عليه ثم نقله هو إلى العربية. . . ولو كان غير ذلك كما قيل لتصدى أحد العلماء أو الأدباء قديمًا لكشف هذا التلبس والكذب من ابن المقفع. . . لاسيما ممن يضاھون ابن المقفع في التوسع في معرفة التراث الشرقي القديم. ويؤكد ذلك أن الكتاب مشهور كما يُذكر، فلا يعقل أن تتم هذه الدعوى الكاذبة من ابن المقفع دون أن يعترضها معترض، وهم الذين أجهدوا أنفسهم في تتبع السرقات الشعرية اليسيرة التي لا يرعي لها الإنسان بالاً فضلاً عن هذا الأصل المشهور.

أما التشكيك في نسبة هذا الكتاب وترديد بعضهم له دون دليل أكيد وإنما هو التعويل على (قيل . . . وقيل) فلا يغني من الحق شيئاً.

٢ - ومما يشهد بذلك أيضاً اكتشاف بعض الأصول الهندية التي تعرف بـ (البنش تئرا) والتي تشترك مع كليلة ودمنة في وجود بعض الأبواب المتشابهة [وهذه الأبواب هي باب الأسد والثور، الحمامة المطوقة، البوم والغربان، القرد والغليم، الناسك وابن عرس، وكلها في الكتاب الأول. والجرد والسنور، الملك والطائر، الأسد وابن آوى، وكلها في الكتاب الثاني. وملك الفيران وقد عثر عليه في

.(۷۲۳/۳) (۲)

يستحق التعظيم والعبادة..] وذكرها ابن النديم في الفهرست^(١) والنويري في نهاية الأرب^(٢).

ولا يقال بعد هذا كما قالت الدكتورة ليلي والدكتور أحمد زكي كما سبق بأن ابن المقفع قد استخدم ثقافته الواسعة في صياغة هذا الكتاب لأن الشواهد الهندية كثيرة ودقيقة في هذا الكتاب وبين أسطره بحيث لا يُصدّق ولا يُعقل أن يقوم ابن المقفع بترتيبها ونشرها كما رأيت ضمن أبواب الكتاب الكثيرة وبصورة تدل على رسوخها في أحداث هذا الكتاب.

وبرغم قوة هذا الرأي ومضمونه فلا يعني ذلكم أن ابن المقفع قد سلم من تهمة التصرف والزيادة في الكتاب.. بل إنه قد صنع ذلك لأغراض ستأتي. وقد تحقق هذا عند بعض العلماء.. فقد مرت معنا مقولة البيروني في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) والتي ذكر فيها أن ابن المقفع زاد باب (برزويه) [قاصداً تشكيك ضعف العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية].

وقال عبداللطيف حمزة [الواقع أن ابن المقفع كان لا بد له أن يتصرف كثيراً في النسخة البهلوية القديمة وذهب بعض الباحثين إلى أنه كان يحذف الجملة أو الفقرة بتمامها من النص البهلوي. وذهبوا إلى أنه كان يضيف الفصل الكامل إذا احتاج الأمر. والأمر قد احتاج فعلاً

(١) (٥٠٢).

(٢) (٥٧/١).

إلى أن يضيف ابن المقفع إلى الترجمة البهلوية هذه الأبواب:

- ١ - الباب الأول في مقدمة الكتاب لعلي بن الشاه الفارسي .
- ٢ - الباب الثالث في عرض الكتاب ترجمة عبدالله بن المقفع .
- ٣ - الباب السادس وهو باب الفحص عن أمر دمنه .
- ٤ - الباب السادس عشر وهو باب الناسك والضيف .
- ٥ - الباب العشرون وهو باب البطة ومالك الحزين .
- ٦ - الباب الحادي والعشرون وهو باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

وأستطيع أن أزيد على هذه الأبواب الستة بابًا سابعًا أميل إلى أنه كذلك من إضافة ابن المقفع . . وهو باب برزويه المتطبب ترجمة بزرجمهر^(١) .

قلت: ومما يشهد لتصرف ابن المقفع في هذا الكتاب ما لاحظته بعض العلماء من اختلاف بين نسخه العربية وسبب ذلك كما يقول عزام: [أنه كتاب أدبي ذو قصص ومواعظ يختلف الكتاب في إجمالها وتفصيلها وفي طريقة قصصها وأسلوب بيانها، فربما يبدو لمترجم أن يخالف من سبقه بالإجمال والتفصيل أو التأنق في العبارة وتيسيرها وهكذا...] ^(٢) .

(١) (ص ٢٠٠) وانظر (ص ٨٢) أيضًا .

(٢) (٢٦) .

عرض الكتاب:

ينقسم كتاب (كليلة ودمنة) إلى الأبواب الآتية:

١ - باب عرض الكتاب لابن المقفع: وفيه تفصيل لمضمون كتاب كليلة ودمنة ولل فوائد التي تجنى منه ثم إيضاح لكيفية مطالعة الكتاب حتى تجنى فوائده، ثم كلام على العلم وأهميته وضرورة إتمامه بالعمل لأن العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر^(١).

٢ - باب بعثة برزويه إلى الهند: فقد علم كسرى الفرس (أنوشروان ابن قياذ) بوجود هذا الكتاب في بلاد الهند فأراد استنساخه والاطلاع عليه [لأنه كان من أفضل ملوك فارس علمًا وحكمًا ورأيًا، وأكثرهم بحثًا عن مكامن العلم والأدب] (٥٠) ولما في هذا الكتاب من حكم ومعاني يحتاجها من يسوس الناس، فبعث لأجل ذلك أحد رؤساء الأطباء في مملكته وهو (برزويه بن آذرهربد). فذهب هذا الطبيب إلى بلاد الهند ونجح في مهمته تلك وعاد مبشرًا كسرى بما صنع. فأمر كسرى [بأن تفتح خزائن الذهب والفضة لبرزويه، وأمره أن يأخذ منها ما أحب] (٥٦). . . فطلب برزويه من كسرى طلبًا أجابه إليه، وهو أن يطلب من بزرجمهر أن يصنع بابًا في رأس هذا الكتاب يذكر فيه حال برزويه الطبيب ليكون عبرة لمن بعده. ففعل بزرجمهر ما أمره به

(١) ابن المقفع - حنا فاخوري - ص(٤٠)، دار المعارف. ويلاحظ خلو هذا العرض من الآيات والأحاديث النبوية والاكتفاء بالأحاديث الأخلاقية العامة.

كسرى وكتب بابًا جديدًا ذكر فيه حال برزويه [وبحثه عن الأديان
والتماسه طلب الحكمة] وهو الباب المسمى:

٣ - باب برزويه الطبيب: وهذا الباب شك في نسبته إلى الأصل
الفارسي بعض العلماء كما عُلّم وعزوه إلى ابن المقفع. فقد تلبس فيه
ابن المقفع شخصية برزويه الطبيب وشرح حاله وموقفه من الأديان إلى
أن أثر الحكمة عليها!، وكان هذا من الشواهد البينة للشك في إسلام
ابن المقفع عند العلماء.

وإليك - أخي القاريء - ملخص لهذا الباب وما جاء فيه من شك
وزندقة:

يبدأ برزويه حديثه بأن أباه كان من المقاتلة، وأمه كانت من بنات
عظماء الزمازمة وفقهائهم في دينهم. وإنما شجعا ابنهما على تعلم
الطب عندما صار له سبع سنين فاجتهد في ذلك. ثم إنه خير نفسه بين
الأمر الأربعة التي يسعى لها الناس ويطلبونها وهي: [المال أم اللذات
أم الصوت^(١) أم أجر الآخرة] (٦٢) ولكنه فضل الطب على ذلك كله!!
وأقبل على مداواة المرضى مزهدًا نفسه بأمر الدنيا ولذاتها ثم يقول:

[ثم نظرت في الطب فوجدت الطبيب لا يستطيع أن يداوي المريض
بدواءٍ يُذهب عنه داءه، فلا يعود إليه أبدًا ذلك الداء ولا غيره من
الأدواء التي هي مثله أو أشد منه. ووجدت عمل الآخرة هو الذي
يسلم من الأذى حتى يبرأ صاحبها برءًا يأمن معه من الأدوية كلها.

(١) أي: الصيت، وهو الشهرة.

فاستخففت بالطب وأردت الدين. فلما وقع ذلك في نفسي اشتبه عليّ أمر الدين؛ أما كتب الطب فلم أجد فيها شيء من الأديان ذكراً يدلني على أهداها وأصوبها. وأما الملل فكثيرة مختلفة ليس منها شيء إلا وهو على ثلاثة أصناف: قوم ورثوا دينهم عن آبائهم، وآخرون أكرهوا عليه حتى ولجوا فيه، وآخرون يبتغون به الدنيا. وكلهم يزعم أنه على صواب وهدى، وأن من خالفه على خطأ وضلالة. والاختلاف بينهم كثير في أمر الخالق والخلق، ومبتدأ الأمر ومنتهاه، وما سوى ذلك. وكلّ على كل زارٍ، وله عدو وعليه عائب. فرأيت أن أراجع علماء أهل كل ملة، وأناظرهم فأنظر فيما يصفون، لعلي أعرف بذلك الحق من الباطل فأختاره وألزمه على ثقة ويقين، غير مصدق بما لا أعرف، ولا تابع ما لا يبلغه عقلي. ففعلت ذلك وسألت ونظرت فلم أجد أحداً من الأوائل يزيد على مدح دينه، وذم ما يخالفه من الأديان. فاستبان لي أنهم بالهوى يجيبون ويتكلمون، لا بالعدل. ولم أجد عند أحدٍ منهم صفةً تكون عدلاً يعرفها ذو العقل ويرضى بها. فقلت: أما إذا لم أصب ثقةً أخذُ منه فإن الرأي أن ألزم دين آبائي. وهممت بذلك فلم أر لي فيه مخرجاً، ولا وجدت الثبوت على دين الآباء سبيلاً، ولا لي فيه حجة ولا عذراً. فأردت التفرغ للعود إلى البحث عن الأديان والمسألة عنها فعرض لي تخوف قرب الأجل وسرعته، وانقطاع الدنيا وفناؤها، وفكرت في ذلك وقلت: أما أنا فلعل موتي يكون أوشك من تقلب كفي ورجع جفني على عيني. و قد كنت أعمل أموراً أرجو أن تكون من صالح الأعمال، لعل ترددي وتنقلي وبحثي عن الأديان يشغلني عن خير كنت أفعله، فيكون أجلي دون ما يطمح إليه أُملي.

فلما خفت التردد والتحول رأيت ألا أتعرض لهما، وأن أقتصر على كل شيء تشهد العقول أنه بر، ويتفق عليه كل أهل الأديان. فكففت يدي عن الضرب والقتل والسرقة والخيانة، ونفسي عن الغضب، ولساني عن الكذب وعن كل كلام فيه ضرر لأحد. وكففت عن أذى الناس والغيبة والبهتان. وحصنت فرجي عن النساء، والتمست من قلبي ألا أتمنى ما لغيري، ولا أحب له سوءًا، ولا أكذب بالبعث والحساب والقيامة والثواب والعقاب، وزايلت الأشرار بقلبي، وأحييت الصالحاء جهدي، ورأيت الصلاح ليس مثله قريب ولا صاحب، ومكتسبه - إذا وفق الله له - يسير، وأصبته خيرًا على أهله، وأبر من الآباء والأمهات. ووجدته يدل على الخير، ويبشر بالنصح، فعل الصديق بالصديق. فلم أزد في أمر النسك تفكيرًا إلا أحدث لي عليه حرصًا. فهممت أن أكون من أهله، ثم تخوفت ألا أصبر على عيشهم وأن تردني العادة التي جريت عليها وغذيت بها. ولم آمن، إن أنا خلعت الدنيا وأخذت في النسك، أن أضعف عنه، وأكون قد رفضت أمورًا كنت أعملها قبله.

فهبت النسك هيبة شديدة، فأحجمت عن الإقدام عليه، وخفت على نفسي من الضجر فيه وقلة الصبر عليه، ودعاني الهوى إلى الرضا بما كنت عليه من حالي في الدنيا، والثبوت عليها.

فلما فكرت في ذلك راجعت نفسي في اختيار النسك وخاصمتها فقلت: ما يجوز هذا أن أفر من الدنيا إلى النسك، إذا فكرت في شرورها وأحزانها، ثم أهرب منه إليها إذا تذكرت ما فيه من الضيق

والمشقة؛ فلا أزال في تصرف وفي تقلب لا أبرم رأياً، ولا أعزم عليه، فصار أمري إلى الرضا بحالي، وإصلاح ما استطعت من عملي لمعادي، لعلني أصادف فيما أمامي زماناً فيه دليل على هداي، وسلطاناً على نفسي، وأعواناً على أمري. فأقمت على من وصفت من حالي.] اهـ كلامه باختصار.

قلت: فهو قد شك في جدوى جميع الأديان في عصره ومنها الأديان السماوية بدعوى أن كل أهل دين يتعصبون لدينهم ويذمون ما عداه وهذا ما دعاه إلى الثبات على حاله الأولى والاقتصار كما يقول [على كل شيء تشهد العقول أنه برّ ويتفق عليه كل أهل الأديان...]. إلى آخر كلامه السابق، أي أنه يكتفي بالأخلاق الشريفة التي يدعو لها أهل كل دين باتفاق كالعزة والكرم والنصرة والشجاعة والعفة... إلخ. وهذا المبدأ في حياتنا المعاصرة يسمى بالمبدأ الإنساني الذي لا يربط صاحبه نفسه بدين من الأديان وإنما يكتفي بما تشهد بصحته العقول، أو أن الناس إخوة فيما بينهم لا يمايز بينهم مبدأ ولا مذهب.

وهذا المبدأ الإنساني العقلي الذي ارتضاه ابن المقفع وسار على نهجه هو في نظري الذي جمع في شخصيته: الفضيلة والزندقة فهو زنديق فاضل! أي أن العلماء الذين وصفوه بالفضيلة هم أنفسهم الذين وصموه بالزندقة... وليس في ذلك تناقض كما قد يتوهم أناس منا... لأن الفضيلة جاءت من اتباع الصفات والأخلاق التي يقبلها العقل ويتفق عليها جميع أهل الأديان كما يقول... وأما الزندقة فأتته من مخالفته لشريعة الإسلام التي تميز بها عن سائر الشرائع، وعباداته التي

لم يتضح للعقل - بعد - الحكمة من خصائصها وصفاتها. فلذا اجتمعت في شخصيته الفضيلة والزندقة دون تعارض، وهذا المذهب الإنساني العام قد جرّ عقولاً كثيرة إلى اتباعه.. لاسيما ممن يتوهم أنه صاحب عقل وذكاء ولا يقبل أن يتبع العامة في دياناتهم ومذاهبهم التي اختلفوا فيها وتفرقت بهم السبل لأجلها.. فهو يدع ذلك كله ويؤثر السلامة في دنياه مبتعداً عن مواطن الخلاف والجدل والصراع بأنواعه.. متوهمًا أنه يستطيع بهذا المسلك أن يجمع حسنات كل فريق وطائفة وأن يرفع الخلاف من ظهر الأرض بأن يُجمع الناس على هذا المذهب العام.

وتجد أصحاب هذا المذهب في تاريخنا موزعين بين طائفتي الفلاسفة والشعراء لأنهما أكثر الطوائف خوصاً في مجالات الفكر، وأكثر الطوائف إعجاباً بما هي عليه.

وليس هذا موضع ضرب الأمثلة والشواهد.. فله مواضع آخر.

ولكن هل يرضى الله تعالى بهذا؟ وهل يقبل الإسلام رأي أصحاب هذا المنهج؟... لا.

فالإسلام لا يكتفي بهذه الأخلاق والصفات الشريفة الحسنة دون الإيمان برسالته ومتطلباتها لأنه الدين الذي اختاره الله لجميع البشر منهاجاً أخيراً لا ينسخ ولا يبدل ولا يقبل عنده غيره. فمن جاء بغيره فقد خالف ما أَرَادَهُ اللهُ وارتضاه لعباده، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٩].

فهذه الصفات والأخلاق لوحدها لا تكفي وإلا لقبلت من غير ابن المقفع وممن فاقه في التحلي بها.. فهذا ابن جدعان رجل يعيش في الجاهلية ويتصف بصفات وأخلاق شريفة يضرب بها المثل عند الفخر.. مما جعل عائشة تتوهم أن هذه المزايا والصفات لا شك نافعة عند الله يوم القيامة، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا ينفعه، إنه لم يقاتل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(١).

أي أن كل هذه الأعمال لن تنفعه دون أن تضم إلى عقيدة الإسلام وشريعته. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٢٣].

بقي أن يقال: هذا الحكم السابق على القول بأن واضح هذا الباب هو ابن المقفع.. وهي شكوك من بعض العلماء لم تثبت بدليل يقيني وإنما الظاهر لنا أنه من كلام برزويه الطبيب الفارسي وهذا كله قبل الإسلام.. فلماذا تحاكمونه به؟

فيقال: أما إن كان القائل ابن المقفع فكما علمت.

وأما إن كان برزويه الطبيب فيقع اللوم والعتاب على ابن المقفع أيضاً لأنه نقل كلامه وتردده وحيرته وشكه في الأديان لعامة المسلمين الذين سيدور هذا الكتاب بينهم.. فكان الأولى به وهو الذي أسلم - كما يزعم - أن يجتنب ترجمة ما يمس عقيدة آحاد المسلمين ويدعوهم إلى الحيرة والريبة في مسائل الدين.

(١) أخرجه مسلم (١/١٣٦).

فإن قيل: إنما هو ناقل أمين وناقل الكفر ليس بكافر.. وهكذا ناقل الحيرة والاضطراب ليس بمتحير ولا مضطرب في أمره.

فأقول: نعم ناقل الكفر ليس بكافر، ولكن بشرط أن ينقله ليزمه أو يعقب عليه.. وابن المقفع لم يصنع شيئاً من هذا وإنما أخذ الكلام بعلمه ثم عرضه لنا بأسلوب أدبي جميل مشوق يؤثر في لب الرجل العاقل فضلاً عن ضعفاء العقول من الصبية والفتيان الذين تهمهم كتب الحكايات وأضرابها. ولا شك أن صنيعة هذا يجعل العقل والقلب يميلان إلى ما تخوف منه بعض العلماء في أمر ابن المقفع.

٤ - باب الأسد والثور: القصة الرئيسية في هذا الباب هي قصة (كليلة ودمنه) وبها سُمي الكتاب. وكليلة ودمنه هما ابنا آوى يعيشان في الغابة بجوار صاحب السلطة (الأسد).. فيصف هذا الباب ما يدور في بلاط الأسد من مكاييد واستماعه لوشاية (دمنه) في الثور الذي لازمه وأحبه.. إلى أن قتله الأسد بتلك الوشاية ثم ندم على ذلك.

٥ - باب الفحص عن أمر دمنه: يصف هذا الباب لنا كيف انكشف أمر دمنه إلى أن حوكم ثم قتل. وهذا الباب كما قال الدكتور حمزة: [لا يمكن أن يكون إلا من إضافة رجل إسلامي كابن المقفع أراد بها أن يلائم بين أغراضه المختلفة كما أراد بها أن يخاطب العقل العربي في ذلك الوقت، وهو العقل الذي عرف ابن المقفع جيداً أنه كان متأثراً بمبادئ الإسلام. ومما يثبت ذلك أن باب (الأسد والثور) في النسخة السريانية القديمة ليس في نهايته شيء يشير إلى محاكمة دمنه، أو شيء يشير إلى عقوبته على سعيه بالفساد، وأن باب (الأسد والثور) أيضاً

وجد في نسخة (الباتش تنترا) أنه إنما ينتهي بما يدل على أن الأسد لم يفكر في أمر (شنزبه) بل إنه أفسح الطريق لدمنه دون الثور واستوزره^(١).

قلت: وهذا الباب وإن قيل إنه من إضافة ابن المقفع وهو الأقرب - لما علمت - فإنه لا يشهد بصدق إسلام الرجل فإن معاقبة المفسد أمر تشهد بحسنه العقول البشرية.. فهو تأكيد لمذهب الرجل العقلي السابق.. أي أن هذا الأمر (معاقبة المفسد) لا يميز الإسلام عن غيره من الديانات والمذاهب فالكمل متفق عليه. فلا يتخذ دليلاً في محل الخلاف.

الأبواب السابقة تعد أبواب الكتاب الرئيسية، وأما ما بعدها من أبواب فهي كالتالي:

● باب الحمامة المطوقة: يدور حول الصداقة وإمكانها بين المتنافرين.

● باب البوم والغربان: يمثل السياسة الخارجية والحرب بين الملوك وبين الأمم، واستطلاع أخبار العدو. ويوضح مكان الحيلة من السياسة وكيف يعامل العدو، وكيف يجب اللجوء معه إلى الحذر مهما أظهر من تضرع وتملق.

● باب القرد والغيلم: يمثل الغباوة وكيف يظفر معها صاحب الحاجة بحاجته فيضيعها، والفتنة وكيف يقع صاحبها في ورطة

فيتخلص منها.

• باب الناسك وابن عرس: يمثل الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا بعيد نظر، فهو أبداً نادم آسف.

• باب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند: هو باب هندي بوذي يمثل العداوة بين البراهمة والبوذية ويشنع على البراهمة. وهو قسمان: قصة الأحلام وتأويلها، والمحاورة بين الملك ووزيره. وفي هذا الباب يسأل الملك الفيلسوف عما إذا عمل به، كرم على رعيته، وثبت ملكه وحفظ أرضه. فيجيبه الفيلسوف أن أفضل ما حفظ به الملك ملكه، وثبت به سلطانه وكرم به نفسه هو الحلم والعقل مع مشاورة اللبيب الرفيق العالم.

• باب ملك الجرذان: يبين أهمية المشورة والنصح في الحياة، فرباً مشورة تخلص من شدائد.

• باب السنور والجرذ: يبين الحكمة في التماس الموالاة والصلح أحياناً، ويوضح الفرق بين الصداقة الحقيقية وتلك التي تبنى على الحاجة والضيق.

• باب الملك والطائر فنزة: يدور على أن ذوي الأوتار^(١) ينبغي ألا يثق بعضهم ببعض، وأن يتقي بعضهم بعضاً.

• باب الأسد وابن آوى: يمثل الرجوع إلى الصداقة بعد العداوة.

(١) أصحاب العداوات.

وعلاقة الملوك فيما بينهم وبين جلسائهم، ومفاد ذلك أن من واجب الملك أن يراجع من أصابته جفوة أو عقوبة عن جرم أو ظلم، ولا سيما إذا كان ذلك الشخص ممن يستعان به ويوثق برأيه، فالمُلك لا يستطيع إلا بالوزراء والأعوان، ولا يتتفع بالوزراء والأعوان إلا بالمودعة والنصيحة.

• باب السائح والصواغ: يمثل صنع المعروف إلى غير أهله، ويبين من يستحق المعروف والثقة.

باب ابن الملك وأصحابه: يمثل أن كل ما يجري على الناس إنما هو قضاء الله وقدره.

• باب اللبؤة والشعهر^(١): يمثل الإنسان الذي يدع ضر غيره لما يصيبه من الضر، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعدوان.

• باب الناسك والضيف: يمثل من يترك ما في يده ليطلب غيره فيضيع هذا وذاك.

• باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين: يمثل الرجل الذي ينفع الآخرين برأيه وهو لا يتتفع به^(٢).

(١) ضرب من بنات آوى.

(٢) ابن المقفع لفاخوري (٤١ - ٤٢).

عملي:

قمت بتهذيب قصص الكتاب وهو الهدف الرئيسي الذي كان نصب عيني عند أول فكرة حول هذا الكتاب لما رأيت من انتشاره وشهرته بين الناس.

وهذا التهذيب يشمل الآتي:

أ - اختصار قصصه والاختصار على ما أراه يفي بالمقصود دون تكرار ممل أو استطرادات عقلية يدور معظمها حول الأخلاق.

ب - تجميع أطراف القصص وعرضها للقاريء واحدة تلو الأخرى فالكتاب كما يعلم من اطلع عليه تتداخل قصصه فيما بينها تداخلاً مرهقاً فالقصة الواحدة تحتوي ضمن أحداثها عدة قصص ينبغي للقاريء أن يتنقل بينها حتى يصل إلى خاتمة القصة الأصل.

ج - حذف أحد أبواب الكتاب لعدم تماشيه مع منهج الإسلام وهو باب (إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند) لأنه كما سبق باب يحكي صراع البراهمة والبوذية من حول الملك. وهو أمر لا يفيد القاريء المسلم الاطلاع عليه بل فيه ترويع ونشر لوثيتهم.

د - حذف بعض القصص الفرعية القصيرة والتي تحوي: وصف العلاقة الآثمة بين المرأة المتزوجة وخليلها أو عشيقها! وهي كثيرة نسبة إلى هذا الكتاب. وكان الأولى بابن المقفع - كما سبق - حذفها أو اتباعها بتعليق يكشف عاقبة هذا العمل.

وهذه القصص هي:

قصة الرجل المتردد (٦٦)، وقصة المرأة الفاجرة وجاريتها (٩٤)، وقصة امرأة الإسكاف وجارتها (٩٥)، وقصة المرأة وعبدها (١٤٠)، وقصة الحراث وامراتيه العاريتين (١٤٩)، وقصة المرزبان وامراته والبازيار (١٥٣)، وقصة التاجر وامراته والسارق (٢٠٠)، وقصة النجار وامراته وخليلها (٢٠٤).

هـ - حذف قصة (الناسك والفأرة التي تحولت إلى جارية) (٢٠٦) لكونها ترمز إلى فكرة تناسخ الأرواح وهي فكرة هندية قديمة حيث تتحول الفأرة إلى جارية جميلة.. ثم تعود إلى أصلها الأول^(١).

و - إبدال عدد من الكلمات والعبارات التي لا تتناسب والحس الإسلامي الصحيح.. أي أنها إما أن تخالف نصاً شرعياً أو أنها تلقي على القصة ظلالاً غير شرعية، مثلاً:

١ - تتردد كلمة (الناسك) في هذا الكتاب كثيراً.. بل تتصدر أحياناً أسماء أبوابه كما في باب (الناسك والضيف)، وأما قصصه فمثل (الناسك واللص)، (الجرذ والناسك والضيف)، (الناسك والمكره والعريض)، (الناسك واللص والشيطان)، (الناسك والفأرة التي

(١) وكذلك قصة (الأرنب والفيل) لما سبق. و(التي باعت سمسمًا مقشورًا بغير مقشور) لعدم فائدتها.

تحولت إلى جارية)، (الناسك وابن عرس)، (الناسك وجرة السمن والعسل).

وكلمة الناسك مأخوذة من النسك وهو العبادة والطاعة وكل ما يقرب إلى الله كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [سورة الحج، الآية: ٦٧]، وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٦٢]، والرجل الناسك أي العابد كما في (لسان العرب)، فلا ضير من إطلاق هذه الصفة على أحد من المسلمين كما قال القائل في أحمد بن حنبل:

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة

وبحب أحمد يعرف المتنسك^(١)

وقال غيره يوصي ابناً له:

أحسن وصاحب كل قار ناسك

حسن التعهد للصلاة صوم

من ضرب حماد هناك ومسعر

وسماك العتكي وابن حكيم^(٢)

فكلمة (ناسك) أطلقت قديماً على صاحب الطاعة والعبادة،

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي (٥٩٧).

(٢) الأغاني (٨٦/١٨).

الملازم لها، الموسوم بها. لكنها لم تؤثر كثيراً في المصادر الإسلامية وتاريخ السلف، وإنما المأثور في مصادرنا الإسلامية هو الألفاظ الشرعية المعتادة كالمؤمن والتقي والمحسن والمسلم والصالح... إلخ.

وقد اخترت استبدال كلمة (ناسك) في هذا الكتاب بغيرها لهذه الأسباب السابقة أولاً... ولأن هذه الكلمة (ناسك) تلقي على القصة ظلالاً هندية بوذية لما احتف بها من القرائن. فمصنف هذا الكتاب يعني بالناسك: الهندي العابد الزاهد، الذي جاهد نفسه بالرياضات الروحية وأصناف العبادات والاعتكاف وحرّم عليها ما أحله الله ليلغ - كما يزعم - المرتبة القصوى في الإشراف والروحانية وترفع النفس عن عالم الماديات... وكل هذا مصادم لشرعية الإسلام التي تحارب مثل هذه الآصار والقيود وتجعل حياة المسلم متوازنة في كافة جوانبها، فلا يطغى جانب على آخر.

فلذلك استبدلت هذه الكلمة.

٢ - ورد في قصة (المصدق المخدوع) قول صاحب البيت لامرأته: [كنت أذهب في الليلة المقمرة ومعى أصحابي حتى أعلو ظهر البيت الذي أريد أن أسرقه، فأنتهي إلى الكوة التي يدخل منها الضوء إلى البيت فأرقي بهذه الرقية وهي (شولم، شولم) سبع مرات...].

ومعلوم أن هذا ليس موضعاً للرقية فضلاً عن كونها غير شرعية

لاحتوائها على كلمات لا يفهم معناها. فلذا استبدلتها بقولي:
[فأنادي بهذا القول: شولم، شولم] حيث جعلتها على سبيل
التهكم باللصوص المخدوعين المصدقين والسخرية بهم.

وأيضاً استبدلت بعض الكلمات التي قد يغمض معناها على
الصفات مما قد يلاحظه المتأمل في هذا التهذيب مقارنة بالأصل.

ز - ذيلت كل قصة تذكر في هذا التهذيب بتعليق إسلامي في
كلمات معدودة لئلا يتضخم التهذيب أولاً، ولئلا يطغى جانب
التعليق على جانب القصص، والاكتفاء بقليل الكلام الذي
يؤدي إلى تحويل القصة إلى الهدف الإسلامي، مما يجعل
ذهن القارئ - الصغير خاصة - يربط بين محتويات هذه
القصص والنصوص الإسلامية فتتم له الفائدة إضافة إلى
المتعة التي تحويها تلك القصص.

أخيراً.. هذه لبنة جديدة تُضم إلى (سلسلة التصفية) التي تهدف:
إعادة النظر في كثير من تراثنا المشهور، ومصادرنا القديمة، وفق نظرة
إسلامية صافية.. لعلها تنفع الأجيال القادمة.

القسم الثاني:

القصص

كَلِيلَة وَحَمْنَة

كان بأرض «دستابند» تاجر مكثّر وكان له بنون. فلما أدركوا أسرعوا في مال أبيهم، ولم يحترفوا حرفة ترد عليه وعليهم. فلامهم أبوهم ووعظهم. ثم إن بني التاجر اتعظوا وأخذوا بأمر أبيهم. وانطلق كبيرهم متوجّهاً بتجارة له إلى أرض يقال لها «مثور» فأتى في طريقه على مكان شديد الوحل، ومعه عجله يجرها ثوران يدعى أحدهما «شنزبة» والآخر «نندبه» فوحل شنزبة في ذلك الوحل. فلم يزل الرجل وأعوانه حتى أخرجوه بعدما بلغ الجهد وأشرف على الهلكة. وخلف ابن التاجر عنده رجلاً وأمره أن يقوم عليه، فإن رآه قد شفي وصلح لحقه به. فلما كان من غد ذلك اليوم ملّ الرجل من حاله وترك الثور ولحق ابن التاجر فأخبره أنه لم يصلح.

أما شنزبة فقد شفي بعدما فارقه الرجل فلم يزل يدب حتى أتى مرجاً خصيباً كثير الماء والعشب فعاش فيه مرتاحاً هنيئاً.

ولم يلبث أن سمن وكثر شحمه وجعل يحك بقرنيه الأرض ويخور ويرفع صوته بالخوار. وكان بقربه أسد يقال له «بنكله» وكان ملك تلك الناحية ومعه سباع كثيرة من الذئاب وبنات آوى والثعالب وغير ذلك. وكان مزهواً متكبراً منفرداً مكتفياً برأيه، فلما سمع الأسد خوار الثور - ولم يكن رأى الثور قط - رعب منه وكره أن يفطن لذلك جنده فلم يبرح مكانه. وكان فيما معه ابنا آوى^(١) يقال لأحدهما «كليلة» وللآخر

(١) ابن آوى حيوان يشبه الذئب وهو أصغر حجماً منه.

«دمنة» وكانا ذَوِي دهاء وأدب. وكان دمنة أشْرهما نفسًا وأبعدهما همة وأقلهما رضا بحاله. ولم يكن الأسد عرفهما. فقال دمنة لكليلة: ما ترى يا أخي؟ ما شأن الأسد مقيمًا في مكانه لا يتجول ولا ينشط كما كان يفعل؟ فقال كليلة: ما شأنك والمسألة عما ليس لك ولا يعينيك؟ أما نحن فحالنا صدق ونحن على باب الأسد واجدون ما نأكل.

ثم إن دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلم عليه فقال الأسد للمقربين إليه: من هذا؟ قالوا: ابن فلان. قال الأسد: قد كنت أعرف أباه. ثم قال له: أين كنت تكون؟ قال دمنة: لم أزل بباب الملك مرابطًا رجاء أن يحضر أمر أعين الملك فيه برأيي ونفسي فإن باب الملك يكثر فيه الأمور التي ربما احتيج فيها إلى من لا نباهة له، وربما كان صغير المنزل فيكون عنده منفعة بقدره. فإن العود المطروح في الأرض ربما انتفع به الإنسان في حك أذنه، فالحيوان العالم بالضرر والنفع حري بأن يكون ذلك عنده ويتنفع به. فلما سمع الأسد كلامه أعجب به ورجا أن يكون عنده نصيحة ورأي. فلما استأنس دمنة بالأسد وخلا به قال: إني رأيت الملك أقام منذ زمان في مكان واحد لا يبرح منه. ففيم ذلك؟ قال له الأسد - وكره أن يعلم منه دمنة جبنًا -: لم يكن ذلك لبأس. فبينما هما على ذلك إذ خار الثور خوارًا شديدًا. فهيج الأسد على أن يخبر دمنة بما في نفسه. فقال: هذا الصوت الذي تسمع ما أدري ما هو. غير أنه خليك أن تكون الجثة على قدر الصوت، فإن يكن ذلك كذلك فليس مكاننا هذا لنا بمكان.

قال دمنة: هل راب الملك شيء غير هذا؟

قال الأسد: لم يكن غير هذا.

فقال دمنة: إن شاء الملك أن يبعثني نحوه وليقم مكانه حتى أرجع إليه ببيان ما يحب أن يعلم منه. فوافق ذلك الأسد. وانطلق دمنة إلى المكان الذي فيه الثور «شنزبة».

فلما عاد دمنة دخل على الأسد. فقال له الأسد: ما صنعت وما رأيت؟ قال دمنة: رأيت ثوراً وهو صاحب الصوت الذي سمعت.

قال الأسد: فما حاله وشدته؟ قال: لا شدة له، قد دنوت منه وحاورته محاوراة الأكفاء فلم يستطع لي شيئاً.

فقال الأسد: لا يغرنك ذلك منه ولا تضعن ذلك على الضعف. فإن الريح لا تضر بصغير الحشيش ولا تحطمه وهي تحطم الشجر. وكذلك الصناديد إنما يصمد بعضها لبعض.

قال دمنة: لا يهابن الملك أمره، ولا يكبرن في صدره شيئاً منه، وأنا آتية به حتى يكون له عبداً سامعاً مطيعاً. ففرح الأسد بذلك وقال له: دونك.

ثم إن دمنة انطلق إلى شنزبة فقال له غير هائب ولا متعنع: إن الأسد أرسلني إليك لآتيه بك وأمرني إن أنت عجلت الإقبال عليه طائعاً أن أوّمنك على نفسك وما سلف منك من الذنب في التأخر عنه والترك للقاءه. وإن تأخرت أن أعجل الرجعة إليه فأخبره بذلك.

قال شنزبة: ومن هذا الأسد الذي أرسلك إليّ وأين هو؟

قال دمنة: هو ملك السباع ومعه جند كثير منهم. فرعب الثور من ذلك وقال: إن أنت جعلت لي على نفسك عهدًا أو أخذت لي منه الأمان أقبلت معك.

فأعطاه منه ما سأل من ذلك.

ثم أقبلًا جميعًا حتى دخلا على الأسد. فأحسن الأسد مسئله شنزة وألطفه وقال له: متى قدمت هذه الأرض؟ وما نزع بك إليها؟ فقص عليه أمره.

فقال له الأسد: الزمني فإني مكرمك ومحسن إليك. فدعا له شنزة وأثنى عليه.

ثم إن الأسد قرّب شنزة وأدناه وكرمه وأنس به رأيًا وعقلًا فائتمنه على أسرارته وشاوره في أموره، ولم تزده الأيام إلا إعجابًا به، ورغبة فيه، وتقربًا له، حتى صار أخص أصحابه عنده منزلة.

فلما رأى دمنة أن الملك قد استخص شنزة واستدناه دونه ودون أصحابه، وأنه صاحب رأيه وخلوته وأنسه ولهوه، اشتد ذلك عليه، فشكا ذلك إلى كليلة أخيه.

فقال كليلة: إن قدرت على هلاك شنزة في غير مشقة تدخل على الأسد فافعل، فإن مكانه قد أضرب بي وبك وبغيرنا من الجند. وإن لم تستطع ذلك إلا بما ينغص الأسد فلا تشتري ذلك بذلك، فإنه غدر مني ومنك ولؤم وكفر.

ثم إن دمنة ترك الدخول على الأسد أيامًا ثم أتاه على خلوته متحازنًا، فقال له الأسد: ما حبسك عني منذ مدة لم أرك، أذلك لخير؟

قال دمنة: حدث ما لم يكن الملك يريده ولا نحن.

قال الأسد: وما ذلك؟

قال دمنة: هو كلام فظيع.

قال الأسد: فأخبرني.

قال دمنة: حدثني الصادق الأمين عندي: أن شنزة خلا برؤوس جندك فقال لهم: قد عرفت الأسد وبلوت رأيه ومكيدته وقوته، فاستبان لي في كل ذلك ضعف، وأنه كائن لي وله شأن، وأنه لما بلغني هذا عرفت أن شنزة خئون غادر، وقد عرف أنك أكرمته الكرامة كلها وجعلته نظير نفسك. فهو اليوم يظن أنه مثلك وأنت إن زلت عن مكانك صار له ملكك.

فقال الأسد: قد فهمت ما ذكرت، ولكن لا أظن شنزة يبغيني سوءًا ولم أفعله به. قال دمنة: إلا أنه لا يحمله على ذلك إلا ذلك. فإنك لم تدع خيرًا إلا ما صنعت به. ولا مرتبة شريفة إلا بلغته إياها. فلم يبق شيء يسمو إليه إلا مكانك.

قال الأسد: لو كان شنزة لي عدوًا كما تذكر لم يقدر على ضري، وكيف يستطيع ذلك وهو آكل عشب وأنا آكل لحم، وإنما هو لي طعام وليس عليّ منه مكروه.

قال دمنة: فلا يدخلن عليك شنزة إلا وأنت مستعد له، واحذر أن يصيب منك غرة، فإنني لا أحسبك لو قد نظرت إليه حين يدخل عليك إلا ستعرف أنه قد هم بعظيمة. ومن علامات ذلك أن ترى لونه متغيراً وأوصاله ترتعد. وهو يلتفت يميناً وشمالاً. ويهيء قرنيه كأنه يهم بالنطح.

قال الأسد: سأخذ بمشورتك في ذلك. ولئن أنا رأيته على ما وصفت فليس في أمره عندي شك.

ثم قال دمنة للأسد: وإلا آتي شنزة فأنظر إلى حاله وأسمع كلامه، لعلني أطلع على بعض أمره فأعلم به الملك؟
قال الأسد: شأنك وما تريده.

فانطلق دمنة إلى الثور فدخل عليه كالحزين المكتئب، فرحب به شنزة وقال: لم أرك منذ أيام. فما حبسك؟ أهو خير؟

قال دمنة: ومتى كان من أهل الخير من لا يملك نفسه، ومن إنما أمره بيد غيره ممن لا يوثق به، ومن لا ينفك في خوف منه حتى ما من ساعة يأمنه فيها على نفسه.

فقال شنزة: فما ذلك؟

قال دمنة: حدثني الصادق الأمين أن الأسد قال لبعض أصحابه: لقد أعجبني سمن شنزة وليست بي حاجة إليه، وما أراني إلا آكله ومطعمكم منه. فلما بلغني ذلك عرفت كفره وغدره. وأقبلت إليك لأحذرك لتحال في نجاتك في رفق. فماذا تريد أن تصنع؟

قال شنزبة: ما أرى إلا أن أجاهده.

قال دمنة: ليس ينبغي لأحد أن يخاطر بنفسه فإنه إن فعل ذلك وهلك كان قد أضاع نفسه وأثم، وإن ظفر كان من قبل القضاء. ولكن ذا العقل يجعل القتال آخر حيلة.

فقال شنزبة: ما أنا بناصب للأسد العداوة ولا متغير له عما كنت عليه حتى يبدو لي ما أتخوف منه فأغالبه. فكره ذلك دمنة وظن أن الأسد إن لم ير من شنزبة العلامات التي قد وصف له اتهمه فقال: انطلق، سيتبين لك إن دخلت عليه آيات ما ذكرت لك.

قال شنزبة: وكيف أعرف ذلك؟ فقال دمنة: إن رأيت الأسد حين تدخل عليه يتصب مقعياً، ويرفع صدره، ويسدد إليك بصره، ويضرب بذنبه ويتلمظ^(١) فاعلم أنه يريد قتلك فاحذره ولا تغتر به.

فقال شنزبة: لئن أنا عاينت منه ما وصفت فما في أمره عندي شك. فذهب شنزبة فدخل على الأسد فرآه على حال ما ذكر دمنة ووصفه له، فاستيقن بالهلكة.

ونظر إليه الأسد فعرف ما كان دمنة ذكر له منه، فوائبه، فاقتتلا قتالاً شديداً سالت منه الدماء بينهما، فقتله الأسد.

ولكنه بعد أيام حزن على ذلك وظن أنه قد تعجل. فقال له دمنة: قد أظفرك الله أيها الملك بعدوك فما الذي تهتم له ويحزنك؟

(١) يحرك شفتيه.

فقال الأسد: لقد أشفقت على قتل شنزة لعقله وكرم خلقه.

فقال دمنة: لا تفعلن ذلك أيها الملك ولا ترحم من تخافه.

مرت الأيام بعد ذلك فخرج النمر ذات يوم - وكان موضع سر الأسد - يطلب قيسًا، فاضطره المطر إلى منزل كليلة ودمنة فلما انتهى إلى الباب سمع كليلة يعاتب دمنة ويلومه على سوء رأيه وصنيعه، وما ارتكب من شنزة في غير ذنب أتاها إليه، فكان يقول له: إن الذي أتيت من النميمة والخداع للأسد، ولست بناج منه إلا بأكثر مما يعاقب به أهل الذنوب.

فلما سمع النمر قول كليلة رجع فدخل على أم الأسد فحدثها الحديث الذي سمع كله.

فلما أصبحت انطلقت إلى ابنها فرأته حزينًا كثيرًا، فلما عاينت ذلك منه عرفت أنه ليس إلا على شنزة. فقالت: حدثني الصادق الأمين عندك أن دمنة لم يركب من شنزة الذي ركب من تحميله إياك عليه إلا لحسده إياه على منزلته منك، ومكانه عندك.

فقال الأسد: ومن خبرك بهذا؟

فقالت: قد استحفظنيه والمستكتم مؤتمن. وأمرته أن يعاقب هذا الفاجر عقوبة بليغة.

فلما سمع الأسد ذلك نادى في جموعه، فحضروا، وأتى بدمنة ونكس الأسد مستحيًا مما ركب من قتل شنزة. فلما رأى دمنة ذلك قال لبعض من يليه متجاهلاً: مالي أرى الملك مكتئبًا مهمومًا؟ هل

حدث أمر جمعكم له؟ فلما سمعت أم الأسد ذلك قالت مجيبة له:
الذي كرب الملك بقاؤك حيًا إلى اليوم أيها الغادر الكذوب!
قال دمنة: وما الذي جنيت مما يستحل به قتلي، ويكرب الملك
بقائي؟

قالت أم الأسد: أعظم الحدث حدثك، وأشد الخيانة خيانتك
واستجهالك الملك، وقتلك البريء من وزرائه.
فأخذ دمنة يعتذر.

فأمر الأسد عند ذلك بدمنة فُقُذ في عنقه طوق، ثم حُبِس، وأمر
بالنظر في أمره. فقالت أم الأسد: لقد بلغني عن هذا الفاجر الكذاب
شر ما يقال عن أحد وتتابع الألسن عليه، وهو له منكر.
وأما كليلة فقد زار دمنة في سجنه وأنبه على صنيعه الذي انتهى به
إلى هذا الحال المؤسف.

وكان في السجن سَبْع. وكان نائمًا قريبًا من كليلة ودمنة حيث
اجتمعا في السجن، فاستيقظ بكلامهما، فسمع جميع ما تحاورا فيه
وتراجعاه بينهما، فحفظ ذلك وكتمه.

فأمر الأسد النمر والقاضي أن يجلسا ويدعوا بدمنة على رؤوس
الجند ثم يسألا عنه ويرفعا إليه الذي يذكرون لهما منه، وجوابه إياهم
فيه، ولا يدعا من ذلك شيئًا إلا رفعاه إليه.

فخرجوا لذلك وجمعا الجند، وبعثوا إلى دمنة فأخضروا، وحاكموه
وهو منكراً التهمة.

وبينما هم على هذه الحال، أرسل السَّبُع المسجون بأن عنده شهادة، فبعث إليه الأسد، فشهد على دمنة بما سمع من قول كليلة وتوبيخه إياه بدخوله بين الأسد والثور بالكذب والنميمة حتى قتل الأسد الثور، وإقرار دمنة بذلك.

فلما كررت أم الأسد ذلك على الأسد وكلمته فيه، ووقع في نفسه أن دمنة حمله على زيغ، أمر به فقتل شر قتلة.

تعليق:

قد اجتمعت في «دمنة» صفتان قبيحتان.. حذرنا منهما الإسلام، فاستحق لأجلهما العقاب العادل.

أولاهما: صفة الحسد التي حملته على كراهية الثور بعد أن كان هو السبب في تقريبه من الأسد. قال ﷺ: «لا تحاسدوا»^(١).

وثانيهما: صفة النميمة بين الناس.. وهي من أكثر الصفات هدمًا للأسر والمجتمعات، ونشرًا للبغضاء بين المسلمين. قال ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»^(٢) أي نمام.

فلنبعد عن هاتين الصفتين، ولنستبدلهما بصفتي المودة وقول الخير.

(١) أخرجه مسلم (١١/٨).

(٢) أخرجه مسلم (٧١/١).

الرجل والكنز

رأى رجل في بعض الصحاري كنزاً.

فلما كشف عنه ونظر إليه، رأى شيئاً عظيماً لا عهد له بمثله، فقال في نفسه: إن أنا أحرزت ما هاهنا بنقله وحدي لم أنقله إلا في أيام، وجعلت لنفسي عملاً طويلاً ولكن أستأجر رجالاً يحملونه. ففعل ذلك.

وجاء بالرجال فحمل كل واحد منهم ما أطاق، وانطلقوا فيما زعم إلى منزله.

فلم يزل في ذلك حتى فرغ واستنفذ الكنز كله.

ثم انطلق إلى منزله بعد الفراغ، فلم يجد شيئاً، ووجد كل رجل منهم قد حاز ما حمل لنفسه، ولم يكن له إلا العناء في استخراجهِ والتعب عليه.

تعليق:

يضرِب هذا المثل لمن فرَّط في شئون نفسه وأعماله، واعتمد على غيره في تحصيلها، ممن لا تؤمن خيانتهم.



طالب العلم والصحيفة الصفراء

طلب رجلٌ علمَ الفصاحة، فأتى صديقًا له ومعه صحيفة صفراء،
فسأله أن يكتب له فيها علم العربية.
فكتب له في الصحيفة ما أراد.

فانطلق الرجل إلى منزله، وجعل يقرأها ولا يدري معناها. وظن
أنه قد أحكم ما في الصحيفة!
وحدث أن تكلم في بعض المجالس وفيه جماعة من أهل الأدب
والفصاحة.

فقال له بعضهم: لحت.

فقال: ألحن والصحيفة الصفراء في بيتي!

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن ادّعى الفضيلة والعلم وهو ليس من أهلها..
فهو جاهل مركب، يجهل ولا يدري أنه يجهل، ويناسب هذا المثل في
زماننا من اجتهد في تحصيل أنواع الكتب الثمينة، ولكنه لم يفقه كثيرًا
مما فيها.

الرجل المتواني والسارق

دخل سارق على رجل في منزله .

فاستيقظ الرجل ، فقال في نفسه : لأسكتن حتى أنظر غاية ما يصنع ، ولأتركه حتى إذا فرغ مما يأخذ قمت إليه فنغصت عليه ذلك وكدرته . فسكت وهو في فراشه .

وجعل السارق يطوف في البيت ، ويجمع ما قدر عليه ، حتى غلب على صاحب البيت النعاس ، وحمله النوم فنام . ووافق ذلك فراغ السارق ، فعمد إلى جميع ما كان جمعه ، فاحتلمه وانطلق به .

واستيقظ الرجل بعد ذهاب السارق ، فلم ير في منزله شيئاً ، فجعل يلوم نفسه ويعاتبها ، ويعض كفيه أسفاً ، وعرف أن فطنته وعلمه لم ينفعاه شيئاً إذ لم يستعملهما .

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن فرط وأضاع الفرصة حتى فاتته ، فخر شيئاً دنيوياً كان أم دينياً .

قال ﷺ : «استعن بالله ولا تعجز»^(١) .



(١) أخرجه مسلم (٥٦/٨) .

بائع السمسم وحقيقه

كان رجل يبيع السمسم، وكان له شريك، فكان سمسمهما في بيت واحد، غير أن الذي لكل واحد منهما على حده. فأحب أحدهما أن يذهب بالذي لشريكه من السمسم.

ثم أحب أن يجعل له علامة، حتى إذا دنا الليل عرفه بها، فعمد إلى رداءه فغطاه به، ثم انطلق إلى صديق له فأخبره بالذي هم به، وسأله أن يعينه عليه، فأبى صديقه ذلك إلا أن يجعل له نصف ما يأخذه منه، ففعل.

ثم إن شريكه دخل البيت، قرأى سمسمه مغطى برداء صاحبه، فظن أنه غطاه من التراب والدواب.

فقال في نفسه: لقد أحسن شريكي في تغطيته سمسمي وإشفاقه عليه، وسمسمه أحق أن يغطي بردائه، فحول الرداء على سمسم صاحبه.

فلما كان في الليل جاء التاجر والرجل معه، ودخلا البيت وهو مظلم، فجعل الرجل يتلمس وييجس حتى وقعت يده على الرداء المغطى على السمسم، وهو يُقدّر أنه كما غطاه، وأنه سمسم صاحبه، فأخذ نصفه وأعطى صديقه الذي عاونه نصفه.

فلما أصبح جاء هو وشريكه حتى دخلا البيت، فلما رأى الرجل أن الذي ذهب سمسمه، ورأى سمسم صاحبه على حاله دعا بالويل، وعرف أن الذي أخذه ذلك الرجل ليس براده، ويخشى أن تكون فيه فضيحته، فلم يقل شيئاً.

تعليق:

يضرِب هذا المثل لبيان عقوبة من أراد الضر بِإخوانه، فعاقبه الله بضد ما يريد، لتزداد حسرته ويتوب من فعلته.

قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٤٩/١).

الرجل الفقير والسارق

أصاب رجلاً حاجةٌ شديدة وفقر، فغدا يطلب من معارفه، وشكا إليهم، وسألهم ثوباً يلبسه، وجهد فلم يصب شيئاً، ورجع إلى منزله وهو آيس.

فبينما هو نائم في فراشه، إذا بسارق قد دخل عليه في منزله، فلما رآه الرجل قال: ما في منزلي شيء يستطيع هذا السارق أن يسرقه، فليصنع ما شاء وليجهد نفسه.

فدار السارق في البيت، وطلب فلم يجد شيئاً يأخذه، فغاضه ذلك، وقال في نفسه: ما أرى ههنا شيئاً، وما أحب أن يذهب عنائي باطلاً. فانطلق إلى خابية فيها شيء من بر، فقال: ما أجد بداً من أخذ هذا البر إذ لم أجد غيره، فبسط عباءته وصب ذلك البر فيها.

فلما بصر به الرجل قال: ليس عن هذا صبر، يذهب البر، ويجتمع عليّ أمران: الجوع والعري!

فصاح بالسارق، فهرب من البيت وترك عباءته، فأخذها صاحب المنزل ولبسها، وأعاد البر إلى مكانه.

تعليق:

يضرِب هذا المثل لمن حصَّل شيئاً دون تعب منه ولا جهد، فقد حاز صاحب المنزل عباءة السارق دون أن يجهد نفسه بعمل أو طلب رزق... ولكن هل يجوز لهذا الرجل أن يمتلك العباءة في شرع الإسلام؟ لا.. بل هي لصاحبها (السارق) تعود إليه.. ولكن بعد أن يأخذ عقابه على اقتحامه منزل الرجل.

المصدق المذوع

زعموا أن جماعة من اللصوص ذهبوا إلى بيت رجل من الأغنياء ليسرقوا متاعه، فعَلُوا ظهر بيته ليلاً، فانتبه صاحب البيت لوطئهم وأحس بهم، فعرف أنه لم يعلُ ظهر بيته في تلك الساعة إلا مريب، فأيقظ امرأته وقال لها: رويداً! إني لأحسب اللصوص قد علوا ظهر بيتنا، وأنا متناوم لك فأيقظيني بصوت رفيع يسمعه من فوق البيت من اللصوص، ثم قلبي: ألا تخبرني عن أموالك الكثيرة هذه وكنوزك من أين جمعتها؟ فإذا أبيت عليك فألحي في السؤال.

ففعلت المرأة ذلك وسمع اللصوص كلامها.

فقال الرجل: أيتها المرأة قد ساقك القدر إلى رزق واسع، فكلي واشربي ولا تسألني عما لو أخبرتك به لم آمن أن يسمعه سامع فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين.

فقالت المرأة: لعمري ما بقربنا أحد يفهم كلامنا.

فقال الرجل: فإني مخبرك أنني لم أجمع هذه الأموال والكنوز إلا بالسرقة.

قالت: وكيف كان ذلك؟ وأنت في أعين الناس عدل مرضي لم يتهمك ولم يسترب بك أحد؟

قال: ذلك لعلم أصبته في السرقة، كان ألطف وأرفق من أن يتهمني أو يرتاب في أحد.

قالت: وكيف كان ذلك؟

قال: كنت أذهب في الليلة المقمرة ومعني أصحابي حتى أعلو ظهر

البيت الذي أريد أن أسرقه .

فأنتهي إلى الكوة التي يدخل منها الضوء إلى البيت .

فأنادي بهذا القول (شولم شولم) سبع مرات . ثم أعتنق الضوء فأهبط فيه إلى البيت ولا يحس بوقوعي أحد ، ثم أقوم في أسفل الضوء فأعيد القول سبع مرات فلا يبقى في البيت مال ولا متاع إلا ظهر لي ، وأمكنني أن أتناوله ، وقويت على حمله ، ثم أعتنق الضوء وأصعد إلى أصحابي فأحملهم ما معي ، ثم نهرب دون أن يشعر بنا أحد .

فلما سمع اللصوص ذلك فرحوا وقالوا: لقد ظفرنا من هذا البيت بأمرٍ هو خير لنا من المال .

وأطالوا المكث حتى ظنوا أن الرجل قد نام ، ودنا رئيسهم إلى مدخل الضوء فقال: (شولم شولم) سبع مرات ، ثم اعتنق الضوء لينزل إلى البيت فوق منكسًا .

فوثب إليه صاحب البيت بعصا فأوجعه ضربًا ، وقال له: من أنت؟

فقال اللص: أنا المصدّق المخدوع . . وهذه ثمرة تصديقي!

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن أراد الضرر بعباد الله الغافلين ، فأوقعه الله في شر عمله ، وفضحه أمام الناس ، ولم يمكّنه مما كان يؤمل ويرجو .

القرن والنجار

زعموا أن قردًا رأى نجارًا يشق خشبة على وتدين راكبًا عليها كالأسوار على الفرس، وكلما شق منها ذراعًا أدخل فيه وتدًا.

ثم إن النجار قام لبعض شأنه، فانطلق القرد يتكلف من ذلك ما ليس من صناعته، فركب الخشبة ووجهه قبل ذلك الوتد، وتدلّت خصيته في الشق!

فلما نزع الوتد انضمت الخشبة على خصيتيه فخرّ مغشيًا عليه. وجاء النجار فزاده ضربًا على وجهه، فانطلق هاربًا يتألم.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن عمل شيئًا لا يحسنه، وتدخل فيما لا يعنيه، فجرّ على نفسه مصيبةً أو أذية لجهله وسوء تدبيره. قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١).



(١) حديث صحيح رواه أحمد، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٨٣٩).

الشحلب والطبل

زعموا أن ثعلبًا جائعًا مر بأجمة فيها طبل معلق، فهبت الريح فجعلت قضبان الشجرة تقرع الطبل فيصوت صوتًا شديدًا.

فسمع الثعلب ذلك الصوت، فتوجه إليه حتى أتاه، فلما رآه ضخمًا ظن أن ذلك لكثرة شحمه ولحمه.

فعالجه حتى شقه.

فلما رآه أجوف قال: ما أدري، لعل أضعف الأشياء أضخمها جثة وأشدّها صوتًا.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن يغر الناس بمنظره وهيئته، فإذا داخله بخلاف ظاهره، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبََّعُوا وَاجْوَظُوا فِي الْكُفْرِ وَكَانَ قُلُوبُهُمْ مُّشْوَّعَةً ۖ يَعْلَمُ الظَّالِمُونَ الْكَافِرِينَ ۚ﴾ [المنافقون: ٤].

وكما قال الشاعر:

تري الرجل الضئيل فتزدريه
وفي أثوابه أسد مزيّر
ويعجبك الطريق فتبتليه
فيخلف ظنك الرجل الطريق

الغراب والأسود^(١)

(١) أي الثعبان.

زعموا أنه كان وكرًا لغراب في شجرة في جبل، وكان بقربه جحر أسود، وكان الغراب كلما فرّخ عمد الأسود إلى فراخه فأكلها. فاشتد ذلك عليه وبلغ منه مبلغًا شديدًا. فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى وقال: أردت أن أشاورك في شيء هممت به، إن أنت وافقتني عليه. قال: وما هو؟

قال: أن آتي الأسود وهو نائم فأنقر عينه لعلني أفضأهما. فقال ابن آوى: بئست الحيلة هممت بها! فالتمس أمرًا تصيب منه حاجتك، ولا يصل فيه مكروه إليك. والرأي أن تنطلق فتلتمس حليًا، فإذا ظفرت به فاخطفه ثم طر به - وأصحابه ينظرون إليك - حتى تنتهي به إلى جحر الأسود فترمي به عليه. فحلق الغراب طائرًا، فإذا بجاريه قد ألقت ثيابها وحليها وهي تغتسل. فأهوى فأخذ عقدًا نفيسًا وحلق به طائرًا حيث يراه الناس، حتى رماه قريبًا من جحر الأسود. فأتى الناس وأخذوا العقد ورأوا الأسود نائمًا على باب جحره فقتلوه.

تعليق:

يضرِب هذا المثل لمن خلَص نفسه من أذى عدوه، وعاقبه بمثل ما كان يعاقب به.. كما قال ﷺ: «الحرب خدعة»^(١).

(١) متفق عليه.

السرطان والحلجوم^(١)

(١) ذكر البط.

كان علجوم معششاً في أجمة مخصبة كثيرة السمك. فعاش هنالك ما عاش، ثم هرم فلم يستطع الصيد، فأصابه جوع وجهد، فالتمس الحيل وقعد مفكراً حزيناً.

فرآه سرطان من بعيد، فلما رأى حاله عرف مابه.

فأتاه فقال له: ما لي أراك كئيباً حزيناً؟

فقال العلجوم: وكيف لا أكتئب ولا أحزن وإنما كان معاشي من السمك ههنا وهن كثير، وإنني رأيت اليوم صيادين أتيا مكاننا هذا فقال أحدهما لصاحبه: إن ههنا سمكاً كثيراً أفلا نصيده؟

فقال صاحبه: إنني عرفت أماننا مكاناً فيه سمك أكثر منه، فأنا أحب أن نبدأ به ثم نرجع إلى ما ههنا فنفيه.

وقد علمتُ أنهما لو فرغا من هناك رجعا إلينا فلم يتركا في هذه الأجمة سمكة إلا صاذاها، فإذا كان ذلك فإن فيه هلاكي وموتي، فانطلق السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك.

فأقبلن إلى العلجوم وقلن له: أتيناك لتشير علينا فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه إذا كان ذا رأي في الأمر الذي يشركه فيه، وأنت ذو رأي ولك في بقائنا صلاح! فأشر علينا برأيك.

قال العلجوم: أما مكابرة الصيادين وقتالهما فليسا عندنا ولا نطيعهما، ولا أعلم حيلة، إلا أنني قد عرفت مكاناً كثير الماء والخضرة فإن شئتن فانتقلن إليه.

فقلن له: ومن يمن علينا بذلك؟

فقال : أنا .

فجعل يحمل منهن اثنتين في كل يوم . ينطلق بهما إلى بعض التلال فيأكلهما .

ثم إن السرطان قال له : إني قد أشفقت مما قد حذرتنا فلو ذهبت بي .

فاحتمله حتى دنا من المكان الذي كان يأكلهن فيه . فلما بصر بعظامهن مجموعة تلوح عرف أنه هو صاحبهن ، وأنه يريد به مثلهن . فقال : إذا لقي المرء عدوه في المواطن التي يعلم أنه هالك فيها فهو حقيق أن يقاتل كرها وحفاظًا على نفسه ، فأهوى بكلائييه على عنق العلجوم فعصره فوقه إلى الأرض ميتًا ورجع السرطان إلى السمك فأخبرهن .

تتايق:

يضرب هذا المثل لمن اتصف بصفة الحذر من الأعداء وعدم الثقة بهم ، ولو أظهروا له الود والقصد الحسن ، واستطاع أن يباغتهم بسرعة بديهة وحسن تصرف .

وهكذا القصة التالية (الأسد والأرنب) .



الأسد والأرنجب

زعموا أن أسدًا كان في أرض مخصبة كثيرة الوحش والماء والمرعى. وكان لا ينفعهن ما هن فيه من خوفهن من الأسد.

فائتمرن فيما بينهن وأتينه فقلن له: إنك لا تصيب منا الدابة إلا بعد تعب ونصب، وقد اجتمعنا على أمر لنا ولك فيه راحة. إن أنت أمتتنا فلم تخفنا.

فقال: أنا فاعل.

فقلن: نرسل إليك لغدائك كل يوم منا دابة.

فرضي بذلك وصالحهن عليه.

ووفى لهن بما أعطاهن من نفسه ووفين له به.

ثم إن أرنبا أصابتها القرعة. . فقالت لهن: أي شيء يضركن إن أنتن رفقتن بي فيما لا يضركن وأريحكن من الأسد؟

فقلن لها: وما ذلك؟

قالت: تأمرن من يذهب معي ألا يتبعني لعلني أبطيء على الأسد حتى يتأخر غداؤه فيغضب لذلك.

ففعلن بها ما ذكرته.

وانطلقت متئدة^(١)، حتى جاءت الساعة التي كان يتغدى فيها.

فجاء الأسد وغضب وقام عن مربضه يمشي وينظر فلما رآها قال:

(١) أي: تمشي ببطء.

من أين جئت؟ وأين الوحوش؟

فقلت: من عندهن جئت: وهن قريب، وقد بعثن معي بأرنب، فلما كنت قريباً منك عرض لي أسد فانتزعها مني. فقلت: إنها طعام الملك فلا تأخذه، فشتمك وقال: أنا أحق بهذه الأرض وما فيها منه. فأتيك لأخبرك.

فقال: انطلقني معي فأرينيه.

فانطلقت به إلى بئر صافي الماء، فقلت: هذا مكانه وهو فيه، وأنا أخاف منه، فاحملني على صدرك.

فحملها في صدره ونظر في البئر فإذا هو بظلمها وظله فوضع الأرنب من صدره ووثب لقتال الأسد في البئر، وطلبه فغرق.

وانفلتت منه الأرنب، ورجعت إلى سائر الوحوش، فأعلمتهن بخبره.

فشكرت الوحوش لها حسن صنيعةها.

السمكات الثلاث

زعموا أن غديرًا كان فيه ثلاث سمكات: كَيْسَة^(١) وأكيس منها وعاجزة. وكان ذلك المكان في منخفض من الأرض لا يكاد يقربه من الناس أحد، فلما كان ذات يوم مر صيادان على ذلك الغدير مجتازين فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيда الثلاث السمكات اللواتي رأياهن فيه.

فلما رأتهم العاجزة ارتابت بهما وتخوفت منهما فقفزت من مدخل الماء إلى النهر.

وأما الكَيْسَة فتلبثت حتى جاء الصيادان، فلما أبصرتهم قد سدا المخرج وعرفت الذي يريدان بها قالت: فرطت وهذه عاقبة التفريط، فكيف الخلاص وقلما تنجح حيلة المرهوق؟ ولكن العالم لا يقنط على كل حال، ولا يدع الأخذ بالرأي.

ثم تماوتت وجعلت تطفو على وجه الماء منقلبه، فأخذها فألقياها على الأرض غير بعيدة من النهر، فوثبت فيه فنجت منهما.

وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صاداها.

تعليق:

يضرِب هذا المثل لثلاثة أصناف من البشر: أحدهما: مجتهد حريص على نفع نفسه والبعد عن مواطن الهلكة، لا يُعَرِّض نفسه للفتن، بل يبادر الأحداث قبل أن تبتهته فينجو ويفلح.

(١) الكَيْسَة أي الذكية الفطنة.

والآخر: يتأني ويتأني حتى إذا وقع الامتحان والابتلاء جدّ في
تخليص نفسه في اللحظة الأخيرة، فنجا بعد أن كاد يهلك.
وأما الثالث: فعاجز غير فطن، يضيع الأوقات في اللهو واللعب،
حتى يدهمه الامتحان والابتلاء، فيقع متعثراً مع العاجزين.

القملة والبرغوث

زعموا أن قملة لزمت فراش رجل من الأشراف، فكانت تصيب من دمه وهو نائم، وتدب ديباً رقيقاً فلا يشعر بها.

ثم إن برغوثاً زارها فقالت له: بت هنا الليلة في دم طيب وفراش لين!

ففعل.

فلما آوى الرجل إلى فراشه لذعه البرغوث فأوجعه، فاستيقظ وأمر لفراشه أن يفتش وينظر ما فيه.

فوثب البرغوث فتنجا.

وأخذوا القملة فقتلوها!!

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن يكرم أهل اللؤم والظلم ممن لا يقدرון المرء قدره، ولا يعاملونه بمثل ما عاملهم به، بل ينقلب صنيعه الحسن لهم إلى أسوأ ما تمناء منهم.

قال الشاعر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

الذئب والخراب وابن أوى^(١) والجمل

(١) ابن آوى حيوان يشبه الذئب وهو أصغر حجمًا منه.

زعموا أن أسدًا كان في أجمة مجاورة طريقًا من طرق الناس له أصحاب ثلاثة: ذئب وابن آوى وغراب. وأن أناسًا من التجار مروا في ذلك الطريق فتخلف عنهم جمل لهم، فدخل الأجمة حتى انتهى إلى الأسد.

فقال له الأسد: من أين أقبلت؟ فأخبره بشأنه.

فقال له: ما تريد؟

قال: أريد صحبة الملك.

قال: فإن أردت صحبتي فاصحبني في الأمن والخصب والسعة.

فأقام الجمل مع الأسد حتى إذا كان يوم توجه الأسد في طلب الصيد، فلقى فيلاً فقاتله قتالاً شديداً، ثم أقبل الأسد تسيل دماؤه مما جرحه الفيل بأنياه، فوقع مثخناً لا يستطيع صيداً.

فلبث الذئب وابن آوى والغراب أياماً لا يصبين شيئاً مما كن يعشن به من فضل الأسد، وأصابهم جوع وهزال شديد.

فعرف الأسد ذلك منهم فقال: جهدتن واحتجتن أن تأكلن.

فقلن: ليس همنا أنفسنا ونحن نرى بالملك ما نرى ولسنا نجد للملك بعض ما يصلحه.

قال الأسد: ما أشك في مودتكم وصحبتكم ولكن إن استطعتم فانتشروا فعسى أن تصيبوا صيداً فتأتوني به، ولعلي أكسبكم ونفسي خيراً.

فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد ففتحوا ناحية واثمروا بينهم وقالوا: ما لنا ولهذا الجمل الآكل العشب، الذي ليس شأنه شأننا، ولا رأيه رأينا؟ ألا نزين للأسد أن يأكله ويطعمنا من لحمه؟

قال ابن آوى: هذا ما لا تستطيعان ذكره للأسد، فإنه قد أمّن الجمل، وجعل له ذمة.

قال الغراب: أقيما مكانكما ودعاني والأسد.

فانطلق الغراب إلى الأسد؟ فلما رآه قال له الأسد: هل حصلتم شيئاً؟

قال له الغراب: إنما يجد من به ابتغاء، ويبصر من به نظر؛ أما نحن فقد ذهب منا البصر والنظر لما أصابنا من الجوع؛ ولكن قد نظرنا في أمر واتفق عليه رأينا، فإن وافقتنا عليه فنحن مخصبون.

قال الأسد: وما ذلك الأمر؟

قال الغراب: هذا الجمل الآكل العشب، المتمرغ بيننا في غير منفعة.

فغضب الأسد وقال: ويلك! ما أخطأ مقالتك، وأعجز رأيك، وأبعدك من الوفاء والرحمة، وما كنت حقيقاً أن تستقبلني بهذه المقالة، ألم تعلم أنني أمنت الجمل، وجعلت له ذمة؟ ألم يبلغك أنه لم يتصدق المتصدق بصدقة - وإن عظمت - هي أعظم من أن يجير نفساً خائفة، وأن يحقن دمًا مهدوراً؟ وقد أجرت الجمل، ولست غادراً

به .

قال الغراب: إني لأعرف ما قال الملك، ولكن النفس الواحدة يفتدي بها أهل البيت، وأهل البيت تفتدي بهم القبيلة، والقبيلة يفتدي بها المصر، والمصر فدى الملك إذا نزلت به الحاجة، وإني جاعل للملك من ذمته مخرجًا، فلا يتكلف الأسد أن يتولى غدرًا ولا يأمر به؛ ولكننا محتالون خيلة فيها وفاء للملك بدمته وظفر منا بحاجتنا. فسكت الأسد.

فأتى الغراب أصحابه فقال: إني قد كلمت الأسد حتى أقر بكذا وكذا. فكيف الحيلة للجمل إذا أبى الأسد أن يلي قتله أو يأمر به؟ قال أصحابه: برفقك ورأيك نرجو ذلك.

قال الغراب: الرأي أن نجتمع والجمل، ونذكر حال الأسد، وما أصابه من الجوع والجهد، ونقول: لقد كان إلينا محسنًا، ولنا مكرمًا. فإن لم ير منا اليوم - وقد نزل به ما نزل - اهتمامًا بأمره وحرصًا على صلاحه، أنزل ذلك منا على لؤم الأخلاق وكفر الإحسان. ولكن هلموا فتقدموا إلى الأسد نذكر له حسن بلائه عندنا، وما كنا نعيش به في جاهه، وأنه قد احتاج إلى شكرنا ووفائنا، وأنا لو كنا نقدر له على فائدة نأتيه بها لم ندخر ذلك عنه، فإن لم نقدر على ذلك فأنفسنا له مبذولة. ثم ليعرض عليه كل واحد منا نفسه وليقل: كلني أيها الملك، ولا تمت جوعًا.

فإذا قال ذلك قائل، أجابه الآخرون وردوا عليه مقالته بشيء يكون

له فيه عذر، فيسكت ويسكتون، ونسلم كلنا ونكون قد قضينا ذمام الأسد، ففعلوا وواطأهم الجمل على ذلك.

ثم تقدموا إلى الأسد، فبدأ الغراب وقال: إنك احتجت أيها الملك إلى ما يقيمك، ونحن أحق أن نهب أنفسنا لك؛ فإننا بك كنا نعيش وبك نرجو عيش من بعدنا من أعقابنا، وإن أنت هلكت فليس لأحد منا بعدك بقاء، ولا لنا في الحياة خير؛ فأنا أحب أن تأكلني، فما أطيب نفسي لك بذلك.

فأجابه الذئب والجمل وابن آوى أن اسكت فما أنت؟ وما في أكلك من الشبع للملك؟

قال ابن آوى: أنا مشبع الملك.

قال الذئب والجمل والغراب: أنت متن البطن والريح، خبيث اللحم؛ فنخاف إن أكلك الملك، أن يقتله خبث لحمك.

قال الذئب: لكنني لست كذلك، فليأكلني الملك.

قال الغراب وابن آوى والجمل: من أراد قتل نفسه فليأكل لحم الذئب، فإنه يأخذه منه الخناق.

وظن الجمل أنه إذا قال مثل ذلك عن نفسه، يلتبسون له مخرجاً كما صنعوا بأنفسهم، ويسلم ويرضي الأسد.

قال الجمل: لكن أيها الملك، لحمي طيب ومريء، وفيه شبع للملك.

قال الذئب والغراب وابن آوى: صدقت وتكرمت وقلت ما نعرف!
فوئبوا عليه فمزقوه.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن يغفل عن مكاييد عدوه وينخدع له بسهولة ويسر، وهذا ليس من خلق المؤمنين الذين أمروا بالحدزر.. قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [سورة النساء، الآية: ٧١].



السحافة والبطة

زعموا أن عينا كان فيها بطتان وسلحفاة، وكان قد ألف بعضهم بعضاً وصادقه، ثم إن تلك العين نقص ماؤها في بعض الأزمان نقصاناً فاحشاً، فلما رأَت البطتان ذلك قالتا: إنه لينبغي لنا ترك ما نحن فيه، والتحول إلى غيره.

فودعتا السلحفاة وقالتا: عليك السلام فإننا ذاهبتان.

قالت السلحفاة: إنما يشتد نقصان الماء على مثلي لأنني لا أعيش إلا به فاحتالا لي واذهبا بي معكما.

فقالتا: لا نستطيع أن نفعل ذلك بك حتى تشرطي لنا أننا إذا حملناك فرآك أحد فذكرك ألا تجيبيه.

فقالت: نعم ولكن كيف السبيل إلى ما ذكرتما؟

فقالتا: تعضين على وسط عود وتأخذ كل واحدة منا بطرفه.

فرضيت بذلك وطارا بها.

فرآها الناس فقال بعضهم لبعض: انظروا إلى العجب، سلحفاة بين بطتين تطيران بها في الهواء.

فلما سمعت ذلك قالت: رغم أنفكم.. فلما فتحت فاهها بالمنطق وقعت إلى الأرض فماتت.

تعليق:

يضرب هذا المثل للمتعجل أو المغفل الذي لا يعرف ما يضره مما ينفعه، ولو حذره الناس ونصحوه.

الذكي والمخفل

زعموا أن رجلين أحدهما ذكي والآخر مغفل اشتركا. فبينما هما يتمشيان إذ وجدا صرة فيها ألف دينار، فأخذاها. وبدا لهما أن يرجعا إلى مدينتهما.

فلما دنوا منها قال المغفل للذكي: خذ نصفها وأعطني نصفها. فقال الذكي - وكان قد أضمر الذهاب بها كلها -: لا فإن المفاوضة أدوم للمصافاة، ولكن يقبض كل واحد منا شيئاً ينفقه، وندفن بقيتها في مكان حريز فإذا احتجنا إليها أخرجناها. فأجابه إلى ذلك، ودفناها تحت شجرة عظيمة. ثم رجع إليها الذكي فذهب بها.

فلقيه المغفل فقال: اخرج بنا إلى وديعتنا فلنقبضها. فانطلقا إلى المكان فاحتفراه فلم يجداها. فجعل الذكي ينتف شعره ويدق صدره، ويقول: لا يثقن أحد بأحد، رجعتَ إليها فأخذتها. وجعل المغفل يحلف أنه ما فعل.

ثم انطلق به إلى القاضي فقص عليه الأمر، فقال القاضي له: هل من يشهد؟

قال: نعم! الشجرة تشهد لي بما أقول! فأنكر ذلك عليه القاضي أشد الإنكار، وأمر به فكفل وقال: وافوني به غداً باكراً.

فانصرف إلى أبيه وأعلمه بذلك، وقال: إني لم أقل الذي ذكرت إلا لأمر قد فكرت فيه، فإن أنت طاوعتني أحرزنا ما أخذنا وأضفنا إليه مثله من المغفل.

فقال: وما ذاك؟ فقص عليه الخبر ثم قال: فأنا أحب أن تذهب الليلة فتدخل جوف الشجرة فإذا جاء القاضي فسألها قلت: (المغفل أخذ الدنانير).

فقال: يا بني إنه ربّ امرئ قد أوقعه تمحله في ورطة.

فلم يزل به حتى أطاعه واتبع رأيه، فلما انتهى القاضي إلى الشجرة وسألها أجابه من جوفها بأن المغفل أخذ الدنانير.

فاشتد عجب القاضي من ذلك وطاف بها فلم ير شيئاً.. فأمر بـحطب فجُمع وألقي عليها وجعل فيه ناراً، فلما دخل عليه الدخان ووصل إليه الوهج تصبّر ساعة ثم صاح! فأخرج بعدما أشرف على الهلاك.

ثم عاقبه القاضي وابنه، فمات الشيخ وانصرف به ابنه يحمله ميتاً، ورجع المغفل وقد أخذ الدنانير.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن أراد الضرر بالآخرين ومكر بهم، فانقلب مكره عليه وأصابه سوء عمله.. قال تعالى: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [سورة يونس، الآية: ٢٧].

الجرذان وتاجر الحديد

زعموا أنه كان بأرض (مردات) تاجر معروف فأراد الذهاب إلى حاجة له، وكان له مائة مَن^(١) من الحديد. فاستودعها رجلاً من معارفه وانطلق إلى حاجته.

فلما رجع طلبها منه؛ وكان صاحبه قد باعها وأكل ثمنها. فقال له: كنت تركتها في ناحية البيت فأكلها الجرذان! ولقد يبلغنا أنه ليس شيء بأقطع للحديد من أنيابهن! وما أهون المصيبة في ذلك إذا سلمك الله. ففرح بما سمع منه، وقال: تفضل اليوم عندي.

فوعده بذلك.

وخرج فأخذ ابناً له صغيراً حتى خباه في بيته ثم رجع إليه، فلم يزالا في شأنهما حتى ذكر التاجر ابنه وافتقده فقال له: هل رأيت ابني؟ فقال صاحب الحديد: لقد رأيت حين دنوت منكم صقراً اختطف غلاماً فلعله هو!

فصاح التاجر وقال: يا من حضر! هل سمعتم بمثل هذا قط؟

فقال: إن أرضاً يأكل جردانها مائة مَن حديدًا ليس بمستكبر لها أن تختطف صقورها الفيلة!

فقال: أنا أكلت حديدك وسُماً أدخلت جوفي.. فادفع إليّ ابني وأردّ لك ثمن حديدك.. ففعل ذلك.

(١) المَن: معيار للوزن يساوي رطلين.

تعليق:

يضرب هذا المثل أيضًا فيمن عرف مكر الخونة وخديعتهم..
فخلص ماله ونفسه منهم بمثل صنيعهم معه. وفيه عقوبة الله لمن
أخلف وعده وخان العهد. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ
إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨].

الطبيب الجاهل والمتكلف

زعموا أنه كان في مدينة من مدائن السند طبيب عالم رفيق، فمات، فنظروا في كتبه فكانوا ينتفعون بها ويتعلمون منها.

فأتاهم رجل زعم أنه طبيب، وأن له رفقا - ولم يكن كذلك - . وكانت لملكهم ابنة كريمة عليه، وكانت حاملا فأصابها بطن^(١) فجعلت تحس الأعراض.

فبعث الملك في طلب الأطباء، فأتت رسله رجلا منهم كان له علم على بعد فرسخ فوجدوه قد عمي، فوصفوا له وجع ابنة الملك، فأمرهم أن يسقوها دواءً يقال له (زامهران) فرجعوا إلى الملك فأخبروه بذلك.

فأمر أن يُطلب لها الطبيب ليهيء ذلك الدواء.

فأتاه ذلك الرجل الجاهل فأخبره أنه عالم عارف بالأدوية وأخلاقها.

فدعا الملك بالقوارير التي فيها أدوية الطبيب فوضعت بين يديه، فأخذ من أحدها قارورة فيها سم فجعل منها ومن غيرها دواءً مركباً.

فلما رأى الملك سرعة فراغه من ذلك ظن أنه عالم، فأمر له بحلي وكسوة حسنة، وسقى الجارية منه، فلم تلبث أن تقطعت أمعاؤها فماتت!! فأمر أبوها بسقي الطبيب من الذي صنع لها من الأدوية، فهلك.

(١) أي: وجع في بطنها.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن تكلف ما لا يحسن، وخاض في علم لم يتقن أصوله فأتى بالعجائب. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٣٦]. فالتواضع وعدم التعالم هما علامة أهل الإيمان الذين اعتادوا أن يقولوا إذا سئلوا عن شيء لا يعلمونه: الله أعلم!

الجماعة الموطقة

زعموا أنه كان بأرض (دستاد) عند مدينة يقال لها (ماروات) مكان للصيد يتصيد فيه الصيادون. وكان في ذلك المكان شجرة عظيمة كثيرة الغصون ملتفة الورق. وكان فيها وكر غراب يقال له (حائر).

فبينما الغراب ذات يوم واقف على الشجرة، إذ بصر برجل من الصيادين قبيح المنظر سيء الحال وعلى عنقه شبكة، وفي يده شُرْك^(١) وعصا، وهو مقبل نحو الشجرة، فذعر الغراب منه وقال: لقد ساق هذا الصياد إلى ههنا أمرّ، فما أدري ما هو! ألموتي أم لموت غيري؟ ولكنني ثابت على كل حال، وناظر ما يصنع.

فنصب الصياد شبكته ونثر فيها حبه وكمن قريباً؛ فلم يلبث إلا قليلاً حتى مرت به حمامة يقال لها المطوّقة - وكانت سيدة الحمام - ومعها حمام كثير.

فرأت الحب ولم تر الشبكة، فانقضت وانقض الحمام معها، فوقعن في الشبكة جميعاً. وجعلت كل حمامة منهن تضرب على ناحيتها وتعالج الخلاص لنفسها.

فقال المطوّقة: لا تَحَاذِلن في المعالجة، ولا تكن نفس كل واحدة منكن أهم إليها من نفس صاحبتها؛ ولكن تعاونّ فلعلنا نقلع الشبكة فينجي بعضنا بعضاً.

ففعَلن ذلك فانتزعن الشبكة حين تعاونّ عليها، وطرن بها في علو السماء.

(١) أي: مضيدة.

ورأى الصياد صنيعة فاتبعهن يطلبهن، ولم يقطع رجاءه منهن،
وظن أنهن لا يطرن إلا قريباً حتى يقعن.

وقال الغراب: لأتبعن حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرهن وأمره.

والتفت المطوقة فلما رأت الصياد يقفوهن^(١) قالت للحمام: ها هو
ذا جاء يطلبكن؛ فإن نحن أخذنا في الفضاء لم يخف عليه أمرنا، ولم
يزل يتبعنا، وإن نحن أخذنا في الشجر والعرمان لم نلبث أن يخفى
عليه أمرنا، ولم يزل يتبعنا حتى يئس منا فينصرف؛ ومع ذلك إن قريباً
من الطريق جحر جرد، وهو صديق لي، فلو انتهينا إليه لقطع عنا هذه
الشبكة وخلصنا منها.

ففعل الحمام ما أمرتهن به المطوقة، وخفين على الصياد، فأيس
منهن وانصرف.

وثبت الغراب على حاله لينظر هل للحمام من حيلة للخروج مما
هن فيه فيتعلمها وتكون عدة لنفسه إن وقع في مثلها.

فلما انتهت المطوقة إلى مكان الجرد أمرت الحمام بالنزول فوقهن،
ووجدت الجرد قد أعد مائة جحر للمخاوف، فنادته المطوقة باسمه
- وكان اسمه زيرك - فأجابها من الجحر وقال: من أنت؟

ف قالت له: الحمامة المطوقة.

فخرج إليها مسرعاً، فلما رآها في الشبكة قال لها: يا أختي، ما

(١) أي: يتبعهن.

أوقعك في هذه الورطة وأنت من الأكياس^(١)؟

قالت له: أما تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلا وهو محتوم على من يصيبه، بأيامه وعلله ومدته وكنه ما يتلى به من قلته وكثرته؟ فالمقادير هي التي أوقعني في هذه الورطة، ودلّني على الحب، وأخفت عليّ الشبكة حتى دخلت فيها وصويحباتي.

فأخذ الجرذ في تقريض العُقد التي كانت فيها المطوقة. فقالت له: ابدأ بتقريض عُقد سائر الحمام قبلي وانصرف إليّ.

فأعادت ذلك عليه مرارًا - كل ذلك لا يلتفت إلى قولها - فلما ألحّت عليه قال لها: قد كررت عليّ هذه المقالة كأنك ليس لك في نفسك حاجة، ولا ترين لها عليك حقًا.

فقالت له المطوقة: لا تلمني على ما سألتك؛ فإنني قد كلفت لجماعتهن بالرياسة، فحق ذلك عليّ عظيم. وقد أدين إليّ حقي في الطاعة والنصيحة، بمعونتهن وطاعتهن، وبذلك نجانا الله من الصياد.

تعليق:

يضرب هذا المثل في أهمية التعاون وفضله، لأن المرء المسلم يقوى بإخوانه، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢].. وأما التعاون على الشر فليس ممدوحًا بل مذمومًا، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢].

(١) أي: الأذكاء.

الجرح والرجل والضعف

قال الجرذ: كان أول منزلي في مدينة يقال لها (ماروت) في بيت رجل لم يكن له عيال. وكان يؤتي كل ليلة بسلة من طعام فيتعشى منه ثم يضع فيها بقيته ويعلقها، فأرصده حتى يخرج، ثم آتي إليها فلا أدع فيها شيئاً إلا أكلته ورميت به إلى الجرذان.

فجهد الرجل مراراً على أن يجعلها في مكان لا أناله، فلم يقدر على ذلك.

ثم إن الرجل نزل به ضيف ذات ليلة فأكلا جميعاً، حتى إذا كانا عند الحديث قال الرجل للضيف: من أي أرض أنت؟ وأين وجهك الآن؟ وكان الضيف رجلاً قد جال الآفاق ورأى العجائب، فأنشأ يحدثه عما وطىء من البلدان ورأى من الأمور.

فجعل الرجل يصفق بيديه أحياناً لينفرني عن السلة.

فغضب الضيف من ذلك وقال: أنا أحدثك وتهزأ بي وتصفق بيديك فما حملك على أن تسألني وأنت تفعل هذا؟ فاعتذر إليه وقال: إني لم أرُتُبَ بحديثك، ولكن كنت أفعل الذي رأيت لأنفر جرذاً في البيت لست أضع فيه طعاماً إلا أكله، وقد شق علي ذلك.

فقال له الضيف: أجرذ واحد أم جرذان كثيرة؟

فقال الرجل: جرذان البيت كثيرة وفيها واحد هو الذي قد آذاني وبرح بي، ولا أستطيع له حيلة.

فقال الضيف: ما هذا إلا لشيء، فالتمس لي فأساً لعلي أحفر جحره وأطلع على بعض شأنه.

فأتاه الرجل بفأس. وكان في جحري ألف دينار لم أدر من كان وضعها فيه، فكنت أفرشها وأفرح بها وأعز بمكانها وأثقلب عليها.

وإن الضيف احتفر الجحر حتى انتهى إليها فاستخرجها وقال: ما كان يقوى هذا الجرذ على الوثوب حيث كان إلا بمكان هذه الدنانير، فإن المال جعل زيادة في القوة والرأي. وسترى أنه بعد اليوم لا يقوى ولا يستطيع ما كان يصنع، ولا يكون له فضل على سائر الجرذان.

فعرفت أنه قد صدق، وأحسست في نفسي ضعفًا ونقصًا وانكسارًا حين أخرجت الدنانير من جحري، وانتقلت إلى جحر آخر.

فلما كان من الغد اجتمع الجرذان اللاتي كن يطفن بي، فقلن: قد أصابنا جوع، وفقدنا ما كنت عودتنا فانظر في أمرنا.

فانطلقت إلى المكان الذي كنت أثب منه إلى السلة فأردت الوثوب مرارًا، كل ذلك لا أقدر عليه. فاستبان لي أن حالي قد تغيرت، وزهد في الجرذان، وسمعت بعضهم يقول لبعض: قد هلك هذا آخر الدهر، فأنصرف عنه، ولا تطمعن فيما عنده، فإننا لا نراه يقوى على ما كان يفعل، بل نحسبه سيحتاج إلى من يعوله. فتركنتي ولحقن بأعدائي ومن كان يحسدني، فأخذن في انتقاصي عندهم، وجعلن لا يقربنني ولا يلتفتن إليّ.

فقلت في نفسي: ما أرى التبع والإخوان والأهل إلا مع المال، ولا تظهر المروءة والرأي والمودة إلا به، فإنني وجدت من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمرًا، قعد به عند العدم، كالماء الذي يبقى في الأودية

عن مطر الصيف، فلا هو إلى بحر ولا إلى نهر، فيبقى في مكانه لأنه لا مادة له.

وقد كنت رأيت الضيف حين أخرج الدنانير من الجحر قاسمها صاحب البيت، ثم وضع نصيبه منها في خريطة^(١) عند رأسه. فطمعت أن أصيب منها شيئاً أردّ به بعض قوتي ويراجعني به أصدقائي، فانطلقت وهو نائم حتى قربت منه فاستيقظ لحركتي، وإلى جانبه قضيب، فضربني به على رأسي ضربة، فأوجعني فسعيت إلى جحري حتى دخلته.

فلما سكن عني ما كان بي من الوجع نازعني الحرص والشره، وغلباني على عقلي فدببت بمثل طمعي الأول، حتى دنوت منه وهو يرصدني. فعاد لي بضربة أخرى على رأسي سالت منها الدماء، وانقلبت ظهرًا لبطن، وانجرت حتى دخلت جحري مغشيًا عليّ لا أعقل ولا أدري. وأصابني من الوجع والفرع ما بَخُسَ إليّ المال حتى إنني لأسمع بذكره فيداخلي منه رعب وذعر.

ثم ذكرت فوجدت البلايا في الدنيا إنما يسوقها إلى صاحبها الحرص والشره فلا يزال صاحبها يتقلب في تعب منها، ورأيت بين السخاء والشح تفاوتًا بعيدًا، ووجدت ركوب الأهوال الشديدة وتجشم الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهون على المرء من بسط يده بالمسألة، ووجدت الرضا والقنوع هما جميع الغنى، وسمعت العلماء

يقولون: لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالکف، ولا حَسَب كحُسن الخُلُق، ولا غنى كالقناعة.

تعليق:

يضرب هذا المثل لحال بعض الناس في ميلهم إلى المال، وتقديرهم صاحبه والرفع من شأنه، وأما من فقدته فلا يابھون له ولا يميلون إلى جانبه. قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [سورة الفجر، الآية: ٢٠].

فالمال قوة وعزة إذا وقع في يد رجل مسلم ينفقه في طاعة الله ونصر دينه، وينقلب نقمة إذا أنفق في الشهوات والملاهي.

فقال الوزير المشير بقتله: إذا لم يقتل الملك هذا الغراب فلتكن منزله منكم منزلة العدو المخوف المحترس منه؛ فإن الغراب ذو إرب ومكر ومكيدة، وما أراه يرضى بالمقام مغنا، ولا جاء إلينا إلا لما يصلحه ويفسدنا. فلم يرفع الملك بقوله رأساً، ولم يزد إلا كرامة للغراب وإحساناً إليه.

وكان الغراب يكلمه إذا دخل عليه، ويكلم من يخلو به من البوم كلاماً يزدادون به ثقة كل يوم. وإليه استرسالاً، وله تصديقاً.

ثم إنه قال ذات يوم لجماعة من البوم وفيهن البوم الذي أشار بقتله: ليبلغن بعضكن الملك عني أن الغربان قد وترتني ترة عظيمة بما فضحتني وعذبتني، وإني لا يستريح قلبي منهن أبداً حتى أدرك منهن ثأري، وإني قد نظرت في ذلك فلم أجدني أستطيعه وأنا غراب. فلم يسمعوا لقوله.

ومع الأيام لم يزدن له إلا كرامة حتى استقل ونبت ريشه ونمى وصلح وعلم ما أراد أن يعلم واطلع على ما أراد الاطلاع عليه، ثم إنه راغ روعة إلى الغربان فقال لملكهم: أبشرك بفراغي مما أردت الفراغ منه من أمر اليوم. وإنما بقي ما قبلك وقبل أصحابك؛ فإن أنتم صرتم وبالغتم في أمركم فهو هلاك اليوم.

فقال الغربان وملكهم: نحن عند أمرك.

فقال: إن البوم بمكان كذا وكذا، وهن بالنهار يجتمعن في مغار في الجبل. وقد علمت مكاناً كثير الحطب، فتعالوا نعدم إليه، وليحمل

كل غراب منا ما استطاع إلى ذلك النقب. وقرب ذلك الجبل راعي غنم، وأنا مصيب منه نارًا فألقيها في الحطب، وتعاونوا أنتم ضربًا بأجنحتكم أي نفخًا وترويحًا للنار حتى تضطرم وتتأجج، فما خرج من البوم احترق بالنار، وما بقي مات خنقًا بالدخان، ففعلوا ذلك فهلك جميع البوم، ورجع الغربان إلى أوطانهم آمناً.

تعليق:

يضرب هذا المثل الطويل لمن أعمل الحيلة والخديعة مع عدوه حتى أمن من شره، وكف عداوته كما فعل الصحابي نعيم بن مسعود رضي الله عنه في غزوة الخندق عندما بث الفرقة بينهم حتى اختلفوا. وقد قال ﷺ: «الحرب خدعة»^(١). وهذا يكون مع أعداء الإسلام، أما أشرار المسلمين فيعاملون بحسب شرهم بدءًا من العفو والنصيحة، إلى أن يصل الحال إلى مقاضاتهم عند الحكام.

(١) متفق عليه.

الأرنج والسور

قال الغراب: كان لي جار من الـهـفـفـارـد^(١)، وجـحـره قـريـب من الشجرة التي فيها وكري، وكان يُكثّر مواصلتنا، وطال جوار بعضنا لبعض. ثم إني فقدته فلم أدر أين غاب. وطالت غيبته عني حتى ظننت أنه قد هلك. فجاءت أرنب إلى مكانه لتسكنه فكرهت أن أخاصمها في مكان الصفرّد ولا أدري ما فعل به الدهر.

فلبث الأرنب في ذلك المكان زمانًا. ثم إن الصفرّد رجع مكانه، فلما وجد فيه الأرنب قال لها: هذا المكان مكاني، فانتقلي عنه. قالت الأرنب: المسكن في يدي، وأنت المدعي؛ فإن كان لك حق فاستعد عليّ.

قال الصفرّد: المكان مكاني، ولي على ذلك البينة.

قالت الأرنب: نحتاج إلى القاضي قبل البينة. قال الصفرّد: ههنا قريب منا القاضي، فانطلقي بنا إليه.

فقالت الأرنب: ومن القاضي؟

قال الصفرّد: سنور متعبد يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يؤذي دابة، ولا يأكل إلا الحشيش، فاذهبي بنا إليه.

فانطلقا، وتبعتهما لأنظر إلى الصوم وقضائه بينهما.

فأتيا إليه هائبين له. فلما رآهما قد أقبلا من بعيد انتصب قائمًا يصلي، فتعجبت الأرنب مما رأت منه.

(١) الصفرّد نوع من الطيور الصغيرة، يوصف بالجبين.

ولما صارا إليه دنوا منه هائين له، فطلبا إليه أن يقضي بينهما.
فأمرهما أن يقصا قصتهما عليه، وقال لهما: لقد أدركني الكبر وثقل
سمعي فما أكاد أسمع، فادنوا مني لأسمع منكما.

فدنوا وأعادا عليه قصتهما. فقال: قد فهمت ما قصصتما. وإني
بادئكما بالنصيحة قبل القضاء: آمركما ألا تطلبا إلا الحق؛ فإن طالب
الحق هو الذي يفلح وإن قُضي عليه، وطالب الباطل مخصوم وإن
قُضي له. وليس لصاحب الدنيا في دنياه شيء، لا مال ولا صديق، إلا
عمل صالح قدمه فقط؛ والعافل حقيق أن يكون سعيه فيما يبقى ويعود
عليه نفعه، ويمقت ما سوى ذلك. ومنزلة المال عند العافل منزلة
القذى، ومنزلة الناس عنده - فيما يحب لهم من الخير ويكره لهم من
الشر - منزلة نفسه.

فلم يزل يقص عليهما ويدنوان منه ويستأنسان به، حتى وثب عليهما
جميعاً فقتلهما.

تعليق:

يضرب هذا المثل لمن غرّ الناس بمظهره وهو بخلاف ذلك، وهذه
من صفات المنافقين الذين يُظهرون ما لا يبطنون. قال تعالى:
﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبََّعِبَكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [سورة
المنافقون، الآية: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَالَى
يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٤٢]. فاحذر هذا الصنف من
الناس.. رعاك الله!

الرجل والمكره

